848:F815YdA

ديورانت

اناتول فرانس حياته من كتبه

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number

848
F815YdA

DATE DUE

848
F815YdA
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

منشورات مكتبة المثنى :

اناتول فرانس

حياته من كتبه

للدكتور ول دورانت
مؤلف « قصة الفلسفة » و « الفلسفة والقضايا الاجتماعية »
و « الدليل إلى أفلاطون »

نقلها إلى العربية
حسن أحمد السلمان

67552

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

طبع بدار الكتاب العربي بمصر
شارع فاروق — تليفون : ٥٠٩٣٨

Cat. Jan. 1948

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

المحتـــويات

١ — المقـــدمة .

٢ — شخصية متناقضة .

٣ — الرجـــل .

٤ — المحـافظ .

٥ — الأبيقورى .

٦ — الشـــاك .

٧ — الاشـــتراكى .

٨ — الفنـــان .

٩ — الصفحة الأخيرة من حياته .

مقدمة

سيرة أناتول فرانس هى قصة الحياة ممثلة فى ابن للإنسانية بار . بدأ حياته بين تضاعيف الكتب على ضفاف باريس مدينة السحر والجمال والأدب الرفيع فصقلت كتب الأقدمين تفكيره ، وقامت المرأة بدورها فخلقت فى نفسه ذاتاً مرهفة الحس سليمة الطوية ، لم تدن إلا للطبيعة ، ولم تحى إلا من أجل الإنسانية .

بدأ فرانس حياته بمحافظة شديدة لأنه قضى الشطر الأول من حياته فى عالم الكتب ، بعيداً عن حقائق الحياة ، فلم يستطع مشاهدة ما فيها من مآس وآلام . والكتب إن تملكت أحداً احتكرته لنفسها وبنت بينه وبين الحياة سداً ليس من السهل اختراقه . غير أن عبقرية فرانس تمردت على كتب الأقدمين فتحررت من قيودها ، بعدما تلمس أثر رجال الكهنوت فى عرقلة تطور حياة الإنسان ، وحينما تثبت من خطورة الدور الذى لعبوه بالاشتراك مع من عهد إليهم الدفاع عن الشعب والوطن ، من أجل السيطرة على الجهاز الحكومى ، فسارع هابطاً من برجه العاجى إلى سوح الحياة يخوضها من أجل البشرية المعذبة ، ليناصر

الطبقة العاملة الشقية ، وليخفف من اعتداء الحكام الطغاة ، ولهذا فهو بحق ابن الحياة . البعيدة عن الرياء والخبث والاستغلال ، بل هو ابن الإنسانية ، وأبر أبنائها ، قضى حياته المديدة مدافعاً عن الحق ، ومن أجل تحطيم ما أقامته الفئة المتسلطة من أنصاب وأصنام فرضت طاعتها وأوجبت عبادتها على أغلب أبناء البشرية المساكين .

هذه بإيجاز قصة أناتول فرانس كتبها بأسلوبه الشائق الكاتب الأمريكي المعروف الدكتور ول . دورانت ، صاحب قصة الفلسفة وغيرها من الكتب الفلسفية المشهورة أضعها بين أيدى أبناء العربية عسى أن تجد فيها فتيات الجيل وفتيانه ما يجلو لهم الفكر ، وما يفتح لهم البصيرة ، وذلك غاية ما أرمى إليه .

بغداد فى ١ ايار سنة ١٩٤٧

حسن أحمد السلمانه

شخصية متناقضة

«لو كنت الطبيعة لجعلت من الرجل والمرأة كائنين بعيدين عن هيئة القردة العليا، قريبى الشبه بالحشرات، تلك الحيوانات التى تستحيل، بعد مدة وجيزة من وجودها إلى شرانق ففراشات. لأمكنهما من قضاء الأيام الأخيرة من حياتهما منغمرين فى الحب ومتعة النفس، ولصيرت الشباب آخر ما يجتازانه من مراحل حياتهما. عند ذاك سأهيء السبيل لأن يقضيا تلك الفترة القصيرة ناشرين أجنحتهما المتألقة، يغذى الطل جسميهما، ويذكى الشوق الملح حرارة فؤاديهما، فتنطفىء الشعلة المتقدة فى أعماق قلبيهما بقبلة طويلة تأتى على آخر قطرة من قطرات رحيق أنفاسهما[1]».

ذلك ما قاله أناتول فرانس فى كتابه «حديقة أبيقور» وهو فى الواقع تعبير دقيق للصورة التى رسمتها الطبيعة لحياته الخاصة.

كثير منا يعتزل الحياة إلى الكتب مخفيا حياءه فى برج عاجى يبتنيه لنفسه، أما أناتول فرانس فقد نما برعمه بين تضاعيف

---

(١) حديقة أبيقور صفحة ٤٧.

الكتب ، ثم استطال حتى انغمر فى الحياة ، وأشرق نجمه بين أفق دراسى هادئ ، ثم أعرض عنه إلى معترك علمى كثير التقلبات . وجلنا يبدأ شبابه بتطرف بليغ وينهى شيخوخته بمحافظة شديدة وبصمت عميق ، لأن رغباتنا فى الإصلاح تتلاشى رويدا رويدا كلما تدافعت شهواتنا لمتع الدنيا ومسراتها . أما أناتول فرانس فقد افتتح الصفحات الأولى من حياته بمحافظة شديدة وظل قانعا بها حتى أشرف على نهاية العقد السادس ، العمر الذى لا يبقى حيوية فى عقل . ومن ثم يمم وجهه شطر الشمس المشرقة فأخذ يغترف من المبادىء الحرة أينما وجد لها ملتمسا . إنه أسرع فى الرابعة والأربعين ، عندما عاجل الأجل سبنوزا ، واضطرب تفكير نتشه ، فانضم إلى هيئة تحرير «لوطان» أكثر الصحف الفرنسية انتشارا وأشدها محافظة . وفى الثانية والخمسين فاز بعضوية الأكادمى الفرنسية[1] لأنه نافس مرشحا يميل بعض الميل إلى المبادئ الحرة . ولكن هذا المحافظ نفسه انضوى تحت صفوف الشيوعيين بعد أن أدرك السبعين من عمره ووهب القائمين بالحركة

(١) انتخب فى سنة ١٨٩٦ عضواً فى الأكادمى الفرنسية ليشغل الكرسى الذى شغر بوفاة فرديناند دولسبس فاتح قناة السويس .

الشيوعية فى الروسيا جميع ما درته عليه جائزة نوبل من مال[١] .
لقد كان ابن الثمانين وهو فى الأربعين ، فصار يفيض بحيوية الشباب عندما أشرف على الثمانين . وهكذا عاش فرانس ردحا من حياته يغذى جسمه الطل ويذكى شعلة نفسه الشوق الملح رافضا مغادرة هذه الدنيا قبل عودته إلى عنفوان شبابه ثانية .

وما سر هذا الشذوذ ؟ فهل شرب هذا الشيخ من ينبوع الشباب الذى لا ينضب ، ذلك الينبوع الذى تحدثنا به الأساطير والقصص ، أم أن قوة سحرية كانت مبعث ذلك ؟ وكيف تسنى لذلك الشاك الذى خط يراعه « الحياة الأدبية[٢] » أن يتبدل فيصبح المحارب الذى رسم برمحه « الكنيسة والجمهورية[٣] » بل كيف تيسر للهازل الغارق فى خضم الدعابة والسخرية والكاتب لـ « جريمة سيلفستر بونار[٤] » ، أن يكون الثائر على عصره الصارخ « نحو عصر أكثر صلاحا[٥] » وكاتب « على الصخرة البيضاء[٦] »

---

(١) نال جائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٢٠ وتقدر هذه الجائزة بنحو خمسة عشر ألف جنيه .

(٢) La Vie Litteraire .

(٣) The Church and the Republic .

(٤) The Crime of Sulvestre Bonnard .

(٥) Towards Better Times .

(٦) On the White Stone .

أم كيف أمكن لمن سمحت له نفسه أن ينعزل مخفيا رأسه بين طيات الأسفار وتضاعيف الكتب ومعفرا وجهه فى تراب المكتبات ، أن يظهر نفسه للوجود ثانية منتصبا ومحاربا الكهنوت ، ومقاوما الروح العسكرية التى تفشت فى عالمه ، ومناهضا الاستعمار الذى طغى على كل شىء فى السياسة والاقتصاد . من أجل حرية دائمة وسلام مكين ؟ .

إننا ولا ريب عاجزون عن تفهم حقيقة ذلك ما لم ندرس أناتول فرانس فى مختلف مراحل حياته ، علنا نهتدى إلى دواعى التناقص فى مظاهر نبوغه ، وإلى أسباب التباين فى سير حياته الخالدة .

الرَّجُل

ولد أناتول جاك تيبولت فى السادس عشر من شهر نيسان عام ١٨٤٤ ، وكان ابن باريس البار ، اختار لنفسه « فرانس » اسما مستعارا يوقع به ما يكتبه من كتب وما يدبجه قلمه من مقالات ، وحسبنا هذا القدر عن حياته الشخصية ففيه الكفاية .

يقول أناتول فرانس عن نفسه : « إنه باريسى بكل ما فى جسمه من أعضاء وما يخفق فى جوانحه من روح » وإنه يهوى باريس هوى لا حصر له ولا حد . لقد كان حقاً صوت باريس ، المدينة التى احتضنته يوم أن تفتحت عيناه لنور هذه الدنيا ، باريس تلك المدينة التى لم يعجب بها أحد إعجابه هو بها ، والتى ظلت دائما يملأ الأمل قلبها وتتوالى الخطوب عليها والتى ارتوت من معين جميع ما فى الأرض من فلسفات ، وانغمرت فى لجج كل ما فى الحياة من رذائل . باريس وارثة حكمة العالم الغربى وجماله الرائع وينبوع ثقافته .

ويقول أيضاً « إننا فى اللحظة التى تلدنا بها أمهاتنا نكون

قد قطعنا مرحلة واسعة من عمرنا[١] . ولا يعنى بقوله هذا أن ابن الطبيعة تمكنه الوراثة البيولوجية من بلوغ دور النضج الجسمى قبل أن يستنشق عبير هذه الحياة ، بل إن الطفل تتوالى عليه تأثيرات ما فى بلاده من ثروة أدبية وكنوز فنية حالما تفيض عيناه بالنور . وصرح فى إحدى قطعه الحماسية الوطنية ، تلك القطع الرائعة التى ضاعفت من حب فرنسا له ، مع أن كل فقرة منها كانت قذيفة هاجم بها قادتها وزعماءها الذين دفعوا بها إلى حرب ضروس فى وقت كانت فيه أحوج إلى السلم والاستقرار ، صرح « أن ثقافتنا الفرنسية أسمى وأرقى من جميع ما فى العالم من ثقافات » . هذه الثقافة التى كانت له الثدى الذى يتغذى منه فتنتشى روحه . ونضيف إلى ذلك أنه شرب كأسها حتى ثمالتها . والحقيقة التى لا مراء فيها أنه لم يخلق فى فرنسا من يفوقه إحاطة بالثقافة الفرنسية أو بالثقافة اللاتينية .

لم يكن فرانس ملما بدقائق الأدب الألمانى . ولم يكن يعرف عن الأدب الإنكليزى إلا النزر اليسير ، ويكفى أنه كان فرنسيا بل لاتينيا وإغريقيا بكل ما فى هذه الكلمات من مدلول . بعيدا ، كما قال رينان ، عن أى تأثير للأدب الشمالى العسر الهضم ، وكان فى

---

(١) نقلا عن روبنصون فى كتابه « العقل فى التكوين » ص ٦٤ .

جميع حقوله الأدبية يحمل الماضى فيوجزه كما تحمل « الذاكرة » ، — التى أكثر برجسون من ترددها فى فلسفته — الماضى فتوجزه . وعند ما يحدثنا عن الماضى فكأنما صوت فرنسا يردد وقائع تاريخها . ويجد القارىء فيما يكتبه من روائع أدبية حلقة وصل تربط نواحى الثقافة الفرنسية على تباين أزمانها . فقد كان لفرانس ضحكة رابليه العالية ، وفكاهة مونتاين الحلوة ، ونقد فولتير اللاذع . فهو رابليه فى « مطبخ الملكة بيدوك » ، وهو رينان فى « حديقة أبيقور » . وتعكس شخصية « تربلت » فى « التاريخ الهزلى » لصورة التى رسمتها ريشة « تاين » لكراندورج . ونكاد نشعر إذ نقرأ « تاييس » كأننا فى وسط أديار الصحراء المصرية مع « فلوبرت » فى كتابه « إغراء القديس أنطونى » .

وتتجلى فى آراء هذه الفئة من أدباء فرنسا فكرة واقعية ، وما حكة مستمدة من حياتهم المدنية ، وتقدير لما فى الحياة من لطف ورقة ، وبساطة بعيدة عما فى الدين من تعقيد ، ومتعة لا خجل فيها ولا حياء ، وصفاء فى الشعور الفنى ، وغير هذه من الصفات التى تجعل منها أسرة حاكمة فى دولة الأدب . وقد شاءت الظروف أن تخلد حكم هذه الأسرة بتخليدها أدب فرانس ، فهو الوريث الشرعى لها وأدبه شامل لجميع ما فى أدبها من رفعة وسمو . ولهذا

فليس بكثير على أناتول أن يختار لنفسه اسماً مستعارا يضم جميع ما فى بلاده من تراث أدبى . وكم كان طغيان هذا الاسم الجديد على اسمه الحقيقى حتى أن الأجيال القادمة لن تعرفه عبقريا إلا به .

انحدر لقب « فرانس » إلى أناتول من أبيه — فرانسو نوئيل تيبولت — والذى دعاه صحبه بفرانس اختصاراً وتحبباً . كان هذا الأب — كاثوليكياً تقياً وملكيا متطرفا ، حريصاً كل الحرص على تقاليد « فندين » . ومن الحرس المخلصين لشارل العاشر ، ظل أميناً له حتى آخر أيام عزه . وحرص الوالد على أن يشبع روح ولده بحب آل بوربون وعلى تثبيت الصور البشعة لمختلف نواحى الثورة الفرنسية فى مخيلة ابنه حتى إذا ما شب وأدرك أعرض عن مبادىء الثورة واعتنق المذهب الملكى المقوض . وبقى فرانس يكافح أثر تعاليم والده فى نفسه طوال نصف قرن أو يزيد قبل أن يتحرر منه . ونكاد نشعر بمدى هذا التأثير حين نقرأ « الآلهة العظماء[1] » . ومن الغريب حقاً أن تختلف جدته لأبيه بنظراتها إلى الحياة عن مذهب والده . فقد كانت قليلة الاكتراث بالدين كثيرة الإعراض عن دعايات الملكية ، ميالة إلى الدعابة اللاذعة والتحرر من كل عقيدة مذهبية . فهى فولتيرية بكل ما فى

---

(١) The Gods Are Athirst نشر عام ١٩١٢ .

هذه الكلمة من معنى . وهى ، كما قال عنها « شانكس » فى كتابه «أناتول فرانس» لا إيمان لها إلا بقدر ما للطير من إيمان، وحرى بها أن تكون من بنات القرن الثامن عشر ما دامت تمثله أدق تمثيل[١] » .

ولم تكن الصعاب التى جابهها الأب فى تنشئة ابنه حسب التقاليد التى كان يرتضيها قليلة . فقد كان يدير حانوتاً لبيع الكتب فى رصفة « مالاكيه » تجاه اللوفر ، وهذا الأمر كفيل بأن يجعل الابن ينمو فى وسط كتبى تخيم عليه الهرطقة ويسوده الشك . ففى مهد أناتول تجلت عبادة جميع ما فى الأدب من شياطين ، وفى فناء الدار التى ولد بها تجمعت أغلب ما فى الفن من روائع ، وهكذا تضافرت عوامل المحيط الذى اكتنفه على أن تجعل منه أديباً وفناناً وفيلسوفاً .

ولقد حدثنا أناتول فى « كتاب صديقى[٢] » ثم فى بيير نوزيير[٣] وكذلك فى « بيير الصغير[٤] » عن أيام طفولته ،

---

(١) نقلا عن شانكس فى كتابه « أناتول فرانس » ص ٧ .

(٢) The book of my friend نشر عام ١٨٨٥ .

(٣) Pierre Noziere نشر عام ١٨٩٩ .

(٤) Petit Pierre نشر عام ١٩١٥ .

وما كان لها من ذكريات جميلة بروح مرحة وبأسلوب جزل . ولا غرو فإن فرانس يمتاز بكثرة ما يكتب عن أيام فتوته وصباه وإلى ذلك يعزى ، حسب ما نعتقد ، بقاء روحه نضرة تواقة .

قال عن نفسه وهو رضيع « إن العالم الذى كنت أحيا فيه بعيد الأفق مترامى الأطراف . . . ولم تكن الأرض أكثر من دائرة واسعة محيطة بالمنزل الذى وجدت فيه ، وكان وجوه الغادين من الناس والرائحين منهمكة بلعبة غريبة جذابة هى لعبة الحياة ، أما عدد تلك الوجوه فهى من الكثرة بحيث لا يتيسر لى عدها ، وأحسبها بضع مئات » فلما أخذته مربيته يوماً إلى حديقة الحيوانات ظن أنه أدخل الجنان التى كانت تحدثه والدته عنها ، وتصفها له بأنها « فى غاية من الإبداع تكتنفها أشجار باسقة جميلة ، ويسرح فيها جميع ما أوجدت قدرة الخالق من حيوان » . أما الفرق بين الجنتين فإنما فى حديقة الحيوانات حبيس فى أقفاص من حديد نتيجة لما بلغته المدنية من تقدم . . . واستعيض بجندى متجلبب بسروال أحمر عن الملك المتقد الشاهر سيفه الحارس لمدخل الجنان[1] » .

---

(١) بيير نوزيير ص ١٩ .

ولقد ذهب ضحية إغراء ألفونصين ، الطفلة الصغيرة ، فاقتادته صاغرا لمحراب الحياة الجنسية ليتعبد فيه ، وهو فى أول طفولته . وإلى ذلك يشير عندما يقول « وإننى لجد شاكر لفونصين تلك الطفلة الصغيرة التى أضافت كثيراً إلى ما كنت أعرفه عن الطبيعة الإنسانية وأنا لم أجتز العام الثانى من عمرى بعد[١] » . وكان حقاً تلميذاً كفئاً ظل طول حياته أميناً على ما اكتسبه من علم ودراية عندما قرأ فاتحة علم ايروس[٢] فلم يحجم عن أن يرسم لنفسه صورة الولد الوقح الغارق فى بحر من الرذيلة دون ما حياء أو خجل . وحدث مرة أن أخذته أمه وهو فى وضع باعث للشك والريبة « فاحمرت وجنتاها ونظرت إلىّ شزراً محاولة أن تقرأ فى وجهى سطور الجريمة الأولى أو أن تتفهم أن ما قمت به هفوة بريئة[٣] » . ويبدو أن جريمته الكبرى ابتلاؤه بحب الاستطلاع ابتلاء عظيما . « ففى السادسة كنت فريسة لحب الاستطلاع يعذبنى ويضيق الخناق على . وقد بقيت هذه الغريزة مبعث جميع ما لاقيت من اضطراب وما نلت من متعة فى حياتى ، وكانت الداعية لأن

---

(١) ببير الصغير ص ٨ .

(٢) Eros اسم لآلهة الحب عند الإغريق .

(٣) ببير الصغير ص (١٣٤) .

انصرف انصرافا تاما للبحث وراء المستحيل[١] ».

واحتضنت المدرسة الطفل الصغير ، ولكنها عجزت عن أن تكسبه من المعارف ما اكتسبه من الشارع . « من بين جميع المدارس التى أرسلت إليها لم أستفد من واحدة بقدر ما استفدت من مدرسة الدكتور ترونت » . ولم يكن أثر المكتبات فى تربيته بأقل من أثر الشارع فيها .

« لقد نشأت على الأرصفة ، حيث تؤلف الكتب القديمة جزءاً كبيراً من المحيط . . . وإذا ما سلمنا بأن السين نهر العزة والمجد فلا بد أن نؤمن بأن الكتب المنضدة على أرصفته ليست إلا هالة له . . . ولست أعرف من بين جميع ما قمت به ، أدعى إلى اللطف من سيرى على رصفات باريس باحثاً عن الكتب . . . فمن بين هذه المجاهل تستطيع أن تستدعى أرواح السلف كما تستدعى العصا السحرية أرواح الأساطير . . . ولقد ألفيت الحكمة مجتمعة هناك . وتعلمت من تلك الأكداس الورقية التى لوثتها المطابع بحبرها ، خيلاء الانتصارات الدارسة وزهو العظمة التى أزهرت لتفنى . . . يا أبناء إسرائيل الذين ينعتكم الناس بالبخل ، يا بائعى الكتب الذين تلمست فيكم سلامة الطوية ، يا أساتذتى ، كم أناشاكر

(١) نقلا عن ميشو فى كتابه « أناتول فرانس » ص ٤٨ .

لكم ما خلفتموه فى عنق من دين . فإنكم وحدكم استطعتم أن تنشروا أمام عينى صور الماضى العجيبة أكثر مما استطاعه أساتذة الجامعات ، ويسرتم لى التحسس بجميع ما أقيم لفكر الإنسان من أنصاب عزيزة[١] » .

وهكذا نستطيع أن نتصور أناتول فرانس « متخطياً من كتاب إلى آخر كما تنتقل النحلة من زهرة إلى أخرى بينما كان رقاص الساعة يحصد ثوانى الحياة برقة وهدوء » فى هذه المكتبات وخلال تلك الساعات التى قضاها فيها استطاع أن يحيط بمعارفه الواسعة التى كان يخفيها دوماً وراء ما تمتع به من إبداع فنى . فعاش تلك الفترة من حياته « الحياة الهادئة الخيالية التى يحياها الوحيد لأبويه » . فصقلته الكتب وعاونتها المرأة فى ذلك كثيراً حتى جعلت منه ذاتاً رقيقة حساسة تتعشق الكتب وتهواها كأنها لم تخلق فى هذه الأرض ، وكم من مرة حاول الأب الشفوق أن يصرف ابنه عن استغراقه الطويل فى التأمل والتفكير ، وكم من مرة كان يردد عليه « إن الوحدة تبعده عن الواقع وتثير فى نفسه الخيال » . غير دار أن الطبيعة اختارت من ابنه فناناً مصوراً

(١) بيير نوزيير ص ٥٩ و ص ٧٢ « وأناتول فرانس » شانكس ص ٢٢ .

لذلك الخيال ، وفاته أن يدرك أن الفاعلية تميت الخيال كما يذهب الخيال بالفاعلية . وقد دلتنا الحياة أن الطفل الكثير النشاط ، الشديد الفاعلية لن يكون له نصيب من العبقرية بل لن يكون من عباقرة العمل أنفسهم . إن أناتول فرانس اعترم وهو فى أول حياته ، أن يكون عبقرياً فريداً فكان له ما اعترم .

« منذ مطلع حياتى تملكتنى رغبة ملحة دفعتنى إلى الحصول على شهرة واسعة وإلى أن أحيا حياة تخلد فى ذاكرة ابن الإنسان . . وكم كنت أصبر إلى أن أنال ما كنت أطمح إليه فى ميدان من ميادين القتال أو ساحة من سوح الحرب . . . لكننى كنت أفتقر إلى حصان أمتطيه وإلى كسوة عسكرية أزين بها مظهرى ، وإلى فوج أنتسب إليه ، وإلى أعداء أحاربهم . فكل هذه أمور لا مفر منها لمن ينشد المجد العسكرى ، ولذلك خطر لى أن أكون قديساً ، فالتظاهر بالقداسة لا يتطلب ما يتطلبه المسلك العسكرى [١] » .

وعقيدتنا أن تفكيره هذا ناجم عن كثرة ما كان يغذى نفسه به من سير القديسين وحياة الصالحين . ولربما كان من نتائج ذلك أيضاً أن أناتول فرانس ألم إلماما واسعاً ، وهو فتى بعد ، بقصص

(١) كتاب صديقى صفحة ٦٨ .

القرون الوسطى وبأساطيرها فرسم للكهنة الصورة التى تعكس ما كان يعرفه عن تلك القرون . ويكفى أن نعرف أن أناتول الصغير أبى يوماً أن يتناول فطوره ، وهجر مالديه من لعب وحطم ما يملك من دمى ومزق قبعته الجديدة ، وحاول أن يصنع لنفسه لباساً خشناً أسوة بالمتقشفين من الرهبان لندرك مدى وقع ما كان يقرؤه عن تعذيب الجسم فى نفسه .

وأرسل الفتى إلى إحدى مدارس الجزويت — كلية ستانيسلاس — كما أرسل إليها رينان ولوميتر من قبل ، وعن هذه المؤسسة يقول : « إن فى معبدها صنعت معاول تهديمها » . وكم أحب الحياة فى هذا المعهد لولا ما كان يزعجه من إجبار على الاعتراف الأسبوعى . وبماذا كانوا يريدونه أن يعترف وهو لم يقترف ذنباً ؟ لقد خطر له يوما أن يرجع إلى كتب الصلوات ليعرف أى الخطايا مستنكرة ، فألفاها تحذر من الاتجار بكل ما هو مقدس ، ومن المواربة والكذب ، ومن الاندفاع تحقيقاً لشهوة قاتلة . فأوحى إليه عقله أن يتهم نفسه بإحدى هذه الخطايا ما دام عاجزاً عن العثور على ما هو أبسط منها وأخف . ولو لم تخنه شجاعته فى اللحظة الأخيرة خشية أن يسأله عرافه عن كنه تلك الخطايا لكان له شأن مع معلميه من القسس . فاضطر

وهو خجل إلى أن يعترف بأنه لم يرتكب إثماً ما .

ويحدثنا فى « زهرة الحياة » عن نفسه عند ماوقف فى مفترق الدراسة وهو حائر ، أيختار دراسة العلوم أم دراسة الآداب القديمة ، فحسب فى أول الأمر أن خادمة البيت ستهديه إلى السبيل السوى ولكنها لم تفقه لحديثه معنى : فاستشار والديه ولكنهما تركاه ونفسه يسلك ما يحلو له من سبل . « وكانت أمى تؤمن إيماناً راسخاً بأن أى منهج سأنتهجه كفيل بإظهار ما لدى من مواهب وما يضطرم فى نفسى من لهب وما فى عقلى من نبوغ . أما أبى فقد ظن أن لن أكون شيئاً سواء أخترت العلوم أم الآداب القديمة » . « وفى عقيدة أناتول أن التفريق بين الاثنين أمر مستهجن » . فأية الناحيتين يقع عليها اختيارنا لابد أن يصيبنا منها ضرر بالغ ، ذلك لأن العلوم دون الآداب آلة لا روح فيها ولا حياة ، وأن الآداب وحدها جهاز فارغ أجوف .

ويعزو فرانس فشل الفئة البورجوازية فى الحكم والسياسة إلى أنها تدربت تدريباً آلياً بحتا ، دون أن يكون للآداب القديمة منها والحديثة أثر فى نفسها . ويرى ضرورة تثقيف أبناء الكليات إن أريد لهم الثقافة الكاملة ، تثقيفاً يمكنهم من الإلمام ببعض الإغريقية وبكل اللاتينية . وأكثر من ذلك أن المرء لن يصلح

للحكم ما لم يكن على علم بالثقافة الأدبية القديمة .

« وإنى اخترت الآداب لأنها ، كما يبدو لى ، تنسجم وما كنت أرغب فيه . . . ومن حسن حظى أن الغريزة لم تخدعنى . ففى حجرات الدراسة كنت أتنقل من اليونان إلى روما — اليونان التى علمت الناس العلم والجمال . وروما التى منحت العالم الأمن والسلام . . . ولك أن تعتنى بالقدرة الفائقة أو بالترفع البالغ ، ولى أن أعتقد أن قضاء ست سنوات أو سبع فى بيئة ثقافية أدبية كاف لأن يمنح العقل الراغب فيه ، المقبل عليه ، سمواً وبأساً وجمالا ، وبغير هذا لن يتيسر له ذلك [١] » .

ولربما كان معتقده هذا فى الثقافة الوثنية القديمة السبب فى نشوزه عن تقاليد الكثلكة ، مثلما كانت هذه العقيدة ذاتها السبب فى اصطباغ النهضة الإيطالية بالصبغة العلمانية . وإذا ما أضفنا أن تاين وبرنارد اتخذا من الجبرية والداروينية نظاماً للحياة ، وأن فرانس أكثر من قراءة داروين وسبنسر حتى أصبح من غلاة المذهب النشوئى ، وأنه اتخذ من المتحف معبداً يتعبد فيه أكثر ساعات يومه متتبعاً تطورات الحياة من أبسط مظاهرها إلى أن تنتهى عند الإنسان ، أدركنا السر فى ثورته على عقائد الدين

(١) زهرة الحياة — عدد أكتوبر من مجلة المزولة سنة ١٩٢١ .

وتقاليد الكثلكة . وأكثر من ذلك أنه أقبل على دراسة العلوم وتفهم حقائق الطبيعة بما فيها من هيئة وطبقات وإنسان ، واتخذ من هذه الدراسة أصولا لبناء ماكان يسميه بالنظام الفلسفى الذى لا يهاجم : على أن انصرافه إلى العلوم والفلسفة شذب من شاعريته ، فانصرف بعد أن أخرج إلى الناس ديوانين من الشعر إلى النثر الفنى . وكان من توفيق اللغة الفرنسية أن يطرأ هذا التحول فى وجهة أدبه ، إذ تحكم بلغته تحكم السيد بعبده ، حتى بَزَّ بِذَلاقته وأسلوبه ، جميع معاصريه من الأدباء .

ولم يكن تحوله عن الكثلكة إلى الداروينية اللاأدرية بالأمر السهل الهين . ففى « رغائب جان سرفيين[1] » يرسم لنا صورة ما قاسته روح من الأرواح عندما اضطرب إيمانها فأصبحت قذيفة بين مده وجزره . ويصف ما طرأ على جان من تغيير فجائى غير شعورى فى عقائده ألقى به بين براثن الوثنية الجاحدة بعد أن كانت نفسه مطمئنة بإيمانها . فقد دعاه والداه لمشاهدة حفل تمثيلى فى اليوم الذى تخرج فيه من المدرسة ، وكانا يعدانه لأن يصبح قسيساً راهبا ، وكأنما بعملهما هذا هيّآ له السبل لأن يقع فريسة

(١) The Desire of Jean Servien نشر عام ١٨٨٢ .

غرامه بممثلة الرواية الأولى فيحبها حباً يقضى على آمالها . ويسترسل من هذا إلى وصف الصراع القائم فى نفس جان سرفيين بين حبه وتقواه وبين شكه وإيمانه . فيؤدى هذا الصراع النفسى إلى اضطراب رغباته اضطراباً يذهب بهدوئه العقلى فينتهى به الأمر إلى الانتحار .

وهكذا يقتل أناتول فرانس نفسه ، كما قضى جوته على نفسه فى آلام فرتر ، ثم يعود إلى الحياة قاصاً علينا قصته .

المحافظ

بعد أن فارق فرانس مقاعد الدرس عين أميناً لمكتبة إحدى شركات النشر المعروفة بـ « لومير »، ومدققاً للغة ما تنشره من كتب. وفى عام ١٨٧٦ شغل أمانة مكتبة مجلس الشيوخ الفرنسى. وكان لهاتين الوظيفتين أثر بعيد فى تركيز جميع ما يتمتع به من جهود حول دراساته الأدبية، وعكوفه على كتب الأقدمين مستكشفاً آثار الثقافة الأدبية القديمة. وقد سئل مرة عن دواعى إعراضه عن كتب المحدثين من الأدباء فكان رده إنه نادراً ما يقرأ إنتاج معاصريه لأنهم لم يأتوه بجديد يجهله، وإن ما لديه من خبرة وتجارب تغنيه عن مطالعة الأدب الحديث. ففى سويعات فراغه فى هاتين المكتبتين وفى ساعاته الهادئة فى مكتبته الخاصة خط قلمه أربعاً من رواياته التى تعد نتاج الدور الأول من حياته الأدبية. وهذه هى « جوكاستا والهر الذى يموت سغبا[١] » و « جريمة سيلفاستر برنار[٢] » و « رغبات جان سرفيين[٣] » —

(١) The Jocasta and the Famish Cat نشر عام ١٨٧٩.

(٢) نشر عام ١٨٨١.

(٣) نشر عام ١٨٨٢.

و « كتاب صديق[1] » . وهذا الأخير صورة للطفولة ، أما الكتاب الثانى صورة للشيخوخة ، وكلتا الصورتين تعبر تعبيراً دقيقاً حيا عن الشخصية التى تعكسها ، حتى أن القارىء ليشك بأن هاتين الصورتين رسمتا بيد واحدة وفى زمن واحد .

يعيش بونارد الشيخ الوقور والعضو المحترم فى المعهد ، حياة هادئة منصرفا إلى دراساته وبحوثه ، عاكفا على مكتبته ، وكانت تزاحمه على كرسيه الوثير الوحيد قطته العزيزة . وقد يرحل أحياناً إلى الأقطار الأخرى من أوربا باحثاً وراء ما له علاقة بدراسته من الآثار والمخلفات . وكثيراً ما كانت مدام تريبوف ، صديقته الحميمة ، ترافقه فى رحلاته هذه لتجمع لها ما جد من علب الثقاب . وربما طال به النوى فأوصله إلى صقليا حيث يكثر من شراء الفواكه من بائع اعتاد النداء بأعلى صوته « كل واشرب واغسل وجهك ببضعة دريهمات » .

على أن دراساته تلك ورحلاته هذه لم تصرفه عن وفائه للمرأة التى أحبها فأخلص لها يوماً من الأيام . لقد توفيت تلك المرأة تاركة فتاتها الوحيدة فى دير من الأديار يضنيها اليتم وتذهب العزلة والفاقة ببهجة حياتها . وقد اضطرته التقاليد إلى اختطافها

(١) نشر عام ١٨٨٥ .

فى ليلة من الليالى الحالكة الظلمة والذهاب بها إلى منزله حيث الحرية والاطمئنان ، وظل بضعة أعوام يحنو عليها ويرعاها رعاية الأب لابنته . وكم كان سعيداً بفعله هذا ، وكم كان مغتبطاً لوفائه للمرأة التى أحبته فيما مضى من الأيام ! وظل لا يفكر بشىء إلا بهذه الفتاة البريئة حتى وافاه ما كان يخشى منه . إذ أحبت الفتاة فتى من معارفها وارتضته زوجاً لها . وفى يوم القران وقف الشيخ والدموع تترقرق فى عينيه والحسرة تحز فؤاده ، يودع الفتاة التى ملأت حياته حقبة من الزمن ، وليشبع عينيه منها وهى ترحل عنه إلى حيث تجد المتعة والهوى ، وتتركه فى وحدته وعزلته . والشيخ الكسير القلب لا يبدى غيظاً بل يكبت فى نفسه ما يشعر به من نقمة مستسلماً للواقع ولحكم الشباب ولقسوة القدر . وأكثر من ذلك أنه لا يتردد فى بيع مكتبته العزيزة عليه ، التى كان يحسبها كنزه الوحيد والتى قضى الشطر الأكبر من حياته فى جمع ما تحتويه من نفائس الكتب ونوادر المؤلفات ، ليمنح تلك الفتاة جهازاً لعرسها . وما إن تبتعد عنه حتى يعود تواً إلى مكتبته الخاوية فلا يجد غير قطته محتلة الكرسى الوحيد المتروك هناك .

كانت هذه الرواية من غير ما ألفه الناس من القصص والروايات . فإن ما تضمنته من سمو الفكرة ورقة الأسلوب

ولطف الخلق يميزها عما كان يؤلف فى عصر ساد فيه الفحش الأدب الفرنسى ، واحتلت الرذيلة ناحية بينة من الرواية الفرنسية . وما إن تداولت الأيدى هذه الرواية حتى أصبح أناتول فرانس ، على حين غرة ، علماً من أعلام أدب بلاده وركنا من أركانه العتيدة . فأسرعت جريدة « الطان » ، أعظم الصحف الفرنسية وأوسعها انتشارا متوسلة إليه أن يكتب لها رسالة أسبوعية فى النقد الأدبى بالأجر الذى يرتضيه . وقد جمعت هذه الرسائل فيما بعد ونشرت فى كتاب أسماه فرانس « الحياة الأدبية » ومجلدات هذا الكتاب تتضمن صفحات من النقد تعبر عن انطباعات الكاتب الذاتية دون ما مواربة أو خوف ، وتبعث فى قرائها من عشاق الأدب روحاً جديداً لم يألفوه من قبل . إن الأعوام الأربعة التى قضاها فى تحرير الصفحة الأدبية فى جريدة « الطان » مكنته من أن يكون فى مقدمة قادة الأدب الفرنسى وحاملى لوائه فما أن عاجل الأجل رينان عام ١٨٩٢ حتى خلفه فى تبوء عرش الثقافة اللاتينية وهو فى الثامنة والأربعين من عمره .

كانت الثقافة اللاتينية يوم ذاك تنزع نزعة فنية ، تميل إلى الواقع وتصطبغ بصبغة الرفعة والزهو . ولم يكن يغيظ أناتول فرانس منها إلا فقدان بعض عناصرها الذوق الفنى . « إن فقدان

الذوق الفنى لما يزعج حتى أولئك الذين لا يدركون حقيقته[١] »، وإن هفوة فى الأسلوب لأشد إزعاجاً للنفس من مخالفة أحد نصوص القانون الجزائى . وكم كان حنقه على إميل زولا شديداً لما كان يفتقر إليه أسلوبه من ذوق فنى ، ولما كانت تحتاجه رواياته من رصانة لغوية .

لقد أحب فرانس العزلة والانفراد فى هذا الدور من أدوار حياته الأدبية محتذياً فى تفكيره أسلوب سبنوزا فى التفكير ، والنهج الذى أوحى به نتشه وعجز عن ممارسته . فألف عيشاً فى جو بعيد عن ضجيج الحياة وصخبها هو أشبه بعيش النساك المتعبدين . وقد قال عن نفسه إنه « راهب اعتنق الفلسفة ديناً ، وتعبد بدير ثيليم[٢] » .

ومما يؤمن به أن سر الاطمئنان النفسى هو العيش مع المختار من أرواح الماضى . وينعت ما يكتبه من مقالات انتقادية بأنها جولات روحية بين روائع أدب الأقدمين . وقد دلته تجاريبه

---

(١) الحياة الأدبية المجلد الأول صفحة ١٧ .

(٢) Abbaye de Théléme من مبتكرات الكاتب الفرنسى القديم رابليه ويعنى به ديراً توفرت فيه أسباب التمتع بالحياة والتلذذ بمسراتها خاصة منها الملاذ المادية .

بالكتب بأن لا فائدة من كتب لا هدف لها ولا غاية . « إننى لن أجهد نفسى فى التطلع إلى محتويات المبتسر من الكتب ، وعندما أنظر إليها وهى مكدسة فى المكتبات أشعر بالحزن يتسرب إلى قلبى فأقول لنفسى وما فائدة هذه الأكداس من الورق الملطخ بحبر المطابع ؟ وما أجدر كاتبيها بتحطيم أقلامهم منصرفين لغير الكتابة من الأعمال[1] » .

وربما كانت قصته عن قميص الرجل السعيد تعبر أدق تعبير عن سلاسة أسلوبه وبساطة تفكيره : ملك توالت عليه النكبات والأهوال فيستخير عرافا ليدله على ما يعيد إلى نفسه السعادة والاطمئنان . فيشير عليه هذا أن يبعث برسله إلى مختلف أنحاء بلاده ليأتوه بقميص رجل سعيد فتنبث الرسل فى أرجاء المملكة باحثة عمن لم يعرف للشقاء معنى ، مفتشين عنه فى كل مكان وبين جميع الطبقات ، بين حاشية الملك ورجال المال والأعمال وبين العشاق والمحبين والقادة والفنانين حتى بين الفلاسفة ولكنهم يعودون فى كل مرة بالخيبة والفشل . فمن ظنوه سعيدا وحسبوه هانئا شكا إليهم سرا مما كان يقاسيه من أحزان

(١) بيير نوزيير صفحة ٧٢ .

وآلام . وأخيرا ، عندما وقعوا على من اعترف لهم بسعادته سقط فى أيديهم لأنه لم يكن غير ناسك اتخذ من الأدغال مسكنا ومن نبت الأرض غذاء ولم يستر جسمه بقميص .

وأخيراً يلتجىء أناتول فرانس إلى إنجيل كانديد كأنه حفيد لفولتير . « إن من الحكمة أن ينصرف المرء عن كتابة الكتب إلى زراعة الكرنب (الملفوف) . . . فليست الكتب إلا أفيون الغرب سريعا ما يقضى علينا . . . أقول هذا وأنا واثق وأرجو أن تصدقوا قولى . فقد أحببت الكتب حتى عبدتها ، وقد وهبت نفسى لها منذ أمد طويل حتى أصبحت أسيرها[1] » .

وهو إذ يصف حاصدى القمح يظهر ما يكنه من غبطة لما يمارسونه من أعمال : « وأين مهنتى من مهنتهم ؟ فإذا ماقارنت عملى بعملهم شعرت بالحطة والضعة . إن ما يقومون به ضرورة من ضرورات البقاء ، أما نحن المهرجين السخفاء فلسنا أكثر من نافخى مزامير تتبدد أصواتهم فى أجواء الفضاء . سعيد من قاد ثوره ليفلح الأرض وليشق أخاديدها شقاً مستقيما ، أما غير هؤلاء فإن ما يقومون به عمل جنونى لا نتيجة له غير الآلام والأتعاب .

(١) الحياة الأدبية المجلد الأول ص ٩ و ص ١٢ .

سينصرف الفلاحون بعد أن يحصدوا ثلاثمائة الحزمة من القمح إلى حيث يجدون راحتهم وكفافهم وهم موقنون بخدمتهم للإنسانية كافة . فما أهنأهم لأنهم أنجزوا عملا معيناً منظما . أما أنا فلا أدرى وقد انتهت ساعات نهارى أو كمل تحرير الصفحات العشر التى بدأت كتابتها منذ الصباح مبكراً ، وهل أتممت نهارى فيما ينفع الناس فألتحف فراشى وأنا قرير العين مطمئن النفس ؟ وهل نقلت الحب بعملى هذا إلى حيث يخزن ؟ وأخيراً هل ستكون كلماتى التى قضيت نهارى بتسطيرها ، بمثابة الخبز للحياة ؟[1] » .

ولا ريب أن ميوله للعزلة ونزوعه للحياة الهادئة أدت به إلى اعتناق المحافظة مذهبا فى الحياة . وهذا أمر طبيعى لمن تجتذبه التقاليد وتستهويه الحياة القروية . (ولو وقف فرانس لحظة وسأل الفلاحين عما يقاسونه من أتعاب وآلام لما افترض خلو حياتهم من العناء والكدح) . وإطلاعه الواسع عن الماضى يحول ولا شك دون اتجاهه نحو المستقبل . فكان يظن أن ليس من جديد فى هذا العالم ، وكل ما ينعت بالجديد سبق أن مارسه الأقدمون . وإن أشد ما يحتاج إليه العالم استقرار للوضع الراهن

(١) الحياة الأدبية المجلد الثانى — ص ٣٣٢ .

واستتباب لما هو سائد . ولن تزهر الثقافات ما لم تدعمها حكومات قوية مستقرة .

ومما زاد فى محافظته أن جمهرة أصحابه كانوا من الصنف المحافظ منهم الرهبان والقسس ، ومنهم القادة العسكريون ومنهم الساسة المقلدون . فإذا ما أحسن وصف هذه الفئة من الناس فى المتأخر من رواياته ، فلأنه عرفهم وتوغل فى أعماق نفوسهم . والقارىء يستطيع أن يتلمس مدى محافظة فرانس مما يأتى :

نشرت فى باريس رواية « الفارس البائس[1] » ، فأقبل على اقتنائها أفراد كثيرون من جيش فرنسا . وكانت الرواية حملة شعواء على الحياة العسكرية ، ولكن أناتول فرانس لم يتأخر عن تأييد بلاغ نشره أحد القادة العسكريين قال فيه : « على الجند أن يحرقوا كل نسخة يجدونها فى ثكناتهم من رواية الفارس البائس ، ومن وجد منهم مقتنيا واحدة منها فجزاؤه السجن الشديد » وعن هذا البلاغ يقول فرانس « إنه غير منسجم العبارة . . . ومع ذلك فإننى أفضل أن أكون كاتبه من أن أكون مؤلف « الفارس البائس » بصفحاتها الأربعمائة ، ذلكم لأننى

(١) Le Cavalier Misere

معتقد بأنه يخدم بلادى خدمة لا تقدر[1] » . وقد وصف مرة الحفل العسكرى الذى تحييه فرنسا فى الرابع عشر من شهر تموز من كل عام وصفا حماسيا أخاذاً واختتمه بعبارة « يحيا الجيش » . على أن هذا المحافظ الذى ناصر الجيش ودافع عنه هو نفسه الذى وقف حزينا متألما بعد عشرة أعوام ينظر إلى رعاع باريس وقد حرضهم أعداء درايفوس وخصوم نصيره زولا للتجمهر أمام داره وهم يرددون بأعلى أصواتهم عبارته تلك .

(١) الحياة الأدبية — المجلد الأول ص ٧٠

الأبيقورى

من حسن حظ أناتول فرانس أنه أربى على الثمانين ، فقضى شطراً كبيراً من عمره فى غنى عن متاعب الحياة المعيشية ، فنما نمواً فكرياً متزناً فهو فى العمر الذى تخبو فيه الشعلة المتقدة فى أفئدة كثير من المفكرين والمبدعين وينضب معين إنتاجهم ويجف الحبر بأقلامهم ، قد حرر نفسه من شعور الرجعية ومن قيود التقاليد ، فأخرج للعالم الأدبى الفريدة بعد الأخرى . لقد كتب « تايس » أروع رواياته وهو فى السادسة والأربعين ، وحرر « وكيل أرض المعاد » أجمل قصصه القصيرة ، وهو فى الثامنة والأربعين ، وتداولت الأيدى « حديقة أبيقور » أسمى كتبه الفلسفية وهو فى الخمسين . فإذا ما أضيف إلى هذه « آراء جيروم كونار[1] » « والزنبقة الحمراء[2] » « ومأساة الإنسان[3] » حق لنا القول بأنه بلغ الذروة فى الإنتاج والغاية فى الإبداع الفنى خلال

---

(١) The Opinions of Jérôme C ignard نشر عام ١٨٩٣ .

(٢) The Red Lily نشر عام ١٨٩٤ .

(٣) The Human Tragedy نشر عام ١٨٩٥ .

الفترة ما بين عامى ١٨٩٠ — ١٨٩٥ ، والتى تعد الدور الثانى من حياته الأدبية .

« وتايس » هى قصة وله راهب بمثلة . كانت اسكندرية فى القرن الثانى للميلاد تتحدث بأسرها عن رقص تايس الراقصة الحسناء ، يوم كانت المدينة تتقد بحماسها الدينى وتردد أصداء غضب ساكنى أديار طيبة ووعيدهم . ومع ذلك فإن الناس ، غنيهم وفقيرهم ، كانوا عبيداً أذلاء لجمال تلك الراقصة ولفتنتها . ولقد نفذ سحرها حتى إلى أولئك الفلاسفة من طلبة المعرفة فكانوا يقضون جل أوقاتهم فى نقاش حول جمالها . وكان الحمالون والكناسون وعمال الأرصفة يضنون على أنفسهم بالخبز والثوم ليجمعوا ما يمكنهم من حجز مقاعدهم فى الملعب عندما تدنو ساعة رقصها ، وفى الوقت ذاته نجد فى أحد أديار الصحراء الراهب بافنتيوس ، وقد كان فى شبابه من عشاق تايس ، نجده فريسة للنزاع القائم فى نفسه بين ذكرى تلك الراقصة وبين وازعه الدينى . وتتلبس شهواته المستيقظة فى نفسه ، وغيرته على من كان يهوى ، تلبس الساعى لإقناعها لتهب نفسها للسيد المسيح ولإدخالها حظيرة التوبة والطهارة . وكم من مرة حذره رئيسه مما نوى ، وكم من مرة أوصاه بالكف عن دوافعه الفكرية تلك . ولكن شهوته المكبوتة

كانت تدفعه بقوة إلى حيث ترقص تايس : فيترك صومعته ويتجه نحو الاسكندرية . وكأنما أراد أناتول فرانس من الصورة التى رسمها لهذا الراهب أن يعبر عن الحقيقة النفسية القائلة بأن الإنسان يتظاهر بالورع والتقوى ليبطن ما يضطرم فى قلبه من شهوة جامحة . وأن جميع ما للكهنوت من قيود وما للأخلاق من اعتبارات لضعيف باطل إزاء الطبيعة الكامنة فى النفس .

ويجد بافنتيوس تايس بين عشاقها ومريديها الكثيرين . ولكنه ما إن يقترب منهم ويستمع إلى ما يتحدثون به حتى تضطرب أفكاره وتتبدد أحلامه وتتقطع أوصال قلبه . ها هى البغى تنهره وترفض الإصغاء إلى عظاته ونصائحه وتحذره من نقمة فينوس ، كما حذرت أفروديت هيبوليتوس من قبل لإهانته الحب ولازدرائه الهوى . أفلم يخلق الإنسان من أجل الحب ، وإذا لم يوجد لهذه الغاية فلأى غاية أخرى وجد ؟ أما بافنتيوس فقد ظل يكرر ازدراءه جمالها وينتقص من فعل سحرها ، وإن أخفت نفسه ما يضطرم فيها من شهوة وانفعال . وكلما ازداد فى ازدراء جمالها ، واحتقار الحياة التى تحياها مالت نفسها سراً إلى تنفيذ أوامره والتكفير عما ارتكبت من خطايا ، بهجر دنياها والاعتكاف بدير من أديار الراهبات المنبثة فى صحراء طيبة . وكما أن سحر المرأة

وجمالها يدفعان الرجل إلى اقتفاء أثرها أينما تكون ، كذلك تتبع المرأة كل من تظنه قوياً . والجمال كما يقول فرانس أعظم قوة سيطرت على الإنسان فى هذه الدنيا . لقد سئمت تاييس عشاقها الكثيرين الذين خضعوا لها وائتمروا بأمرها . وعافت نفسها ما كانوا يرددونه عليها من أقوال مبتذلة متماثلة وتاق قلبها للذى يستطيع إملاء إرادته عليها وتسييرها حسب ما يشتهى ويرغب . وهكذا تذعن تاييس فى آخر أمرها لمشيئة الراهب وترتضى أن تتبعه إلى كبد الصحراء حتى توارى نفسها فى دير من أديار الراهبات . أما هو فيرجع إلى صومعته بعد أن يوصلها إلى الدير ظاناً أنه انتصر على الرذيلة وقهر الباطل .

والتعبد والصلاة فى هذه المرة لا يعيدان إلى نفسه الاطمئنان والهدوء ، كما كان يظن أولا ، ذلك لأنه عاد بجسمه فقط تاركا روحه مع تاييس . وما أن خلا ونفسه حتى أخذت صور شهواته تقض مضجعه فى نومه وتعذبه فى يقظته . وفى ساعة من ساعات ذهوله الفكرى يبدو له خيال يكشف له الحقيقة التى تجاهلها منذ أن فكر فى تاييس . ويقول له « إنك لا تستطيع أن تتخلص منى ، فأنا جمال المرأة وسحرها ، ولا مهرب لك منه أيها الأحمق الفاقد شعوره . إنك لتجد صورتى فى إشراق الزهور وبهاء النحل وفى

حومان الحمام ووثبات الريم وفى خرير الجداول وأشعة القمر المنير . إنك إن أغمضت عينيك فستجدنى فى قرارة نفسك[١] » .

وأخيراً يصبح الحلم أشد تأثيراً من الحقيقة فيدفع بافنتيوس إلى الفرار من صومعته عابراً الصحراء شاقا طريقه إلى الدير الذى ترك فيه روحه ليجد تايس تلفظ أنفاسها الأخيرة لتموت ميتة القديسين الأطهار . ويدرك إذ يرمى نفسه عليها ويضعها بين يديه ، أنه يضم جثة هامدة . فتطرده الراهبات شر طردة بعد أن بعثت جميع ما فى جسمه من شهوات ليهيم على وجهه وسط ظلمة الصحراء الحالكة فاقد الرشد والشعور .

لم يسبق فى جميع تاريخ الآداب أن رسم أديب الصورة التى رسمها أناتول فرانس لانتصار الجسم على الروح ، ولفوز الدوافع الوثنية الأبيقورية على التقاليد الدينية الرواقية ، سواء أكان بدقة التصوير وسموه أم بعذوبة الأسلوب وإحكامه . فهو فى رواية « تايس » فنان أكثر من فيلسوف يشير إلى المذهب الأبيقورى إشارة خفيفة دون ما توسع فى الشرح أو إسهاب فى التحليل ، بخلاف ما كان عليه فى روايتيه « مطبخ الملكة بيدوك » و « آراء

---

(١) تايس ٢٠٧ .

جيروم كونار » ففى هاتين الروايتين يتقمص فرانس روح رابليه فتطغى الرغبات الجنسية على الصور الفنية .

يشرف على مطبخ الملكة الفدعاء والدا جاك تورنيبروش اللذان أكرها ابنهما على أن يكون كاهنا وقسيسا . ويسوق القدر هذا الكاهن للوقوع بين براثن جيروم كونار وفتاتين ضربتا فى الجمال بسهم وافر وحرمتا من كل ما يمت إلى الفضيلة والكرامة بصلة . والفتاتان تحاولان إغراءه ، وإضعاف إيمانه بما تمطران عليه من أسئلة فيها كثير من الكفر والفجور . وتسأله أحداهن وكانت تفوق الأخرى جمالا وفتنة « وهل تظن أن من السهل على المرأة أن تكون جميلة دون أن تكون مبدعة للأسى ومبعثاً للحزن ؟ » وفى الوقت ذاته كان كونار يكثر من التحدث إليه عن الفلسفة ومبلغ أثرها فى الحياة محاولا تهدئة انفعالاته . ولا ريب أن فرانس كان موفقاً فى رسمه الصورة التى أرادها لشخصية هذا الكاهن المرح إلى أبعد حدود التوفيق . فقد رسم كاهنا لأنه فرض عليه أن يكون كذلك ، ولو خير لكان أبعد الناس عن حياة الكهنوت . وكان يتنازعه عاملان — حبه للكواعب من النساء ورغباته في القديم من الكتب . وكان بحكم مهنته يبطن شوقه للمرأة ويعلن رغباته فى الكتب . وفى الليلة التى سبقت تلك التى تودد

فيها لعشيقة تلميذه جاك، وقف يقول لصاحبه الكيميائى المتقشف « داستراك » ، المعرض عن المرأة والمنصرف للعلم ولدراسة حياة الحيوان خاصة « وأين المرأة من صحائف البابيروس المخطوطة فى الاسكندرية ؟ إن أى ترابط بين المرأة والرجل يبعدهما عن الخلود ويقربهما من الفناء . إننا إن أردنا الخلود فلا سبيل لنا إلا الإعراض عن الحب والابتعاد عن شروره » . فيجيبه صاحبه المسكين « أما أنا فقد عاهدت نفسى على المضى فى بحثى العلمى لتمديد عمر الإنسان عسى أن أوفق لأجعل منه كائنا يطول به الأجل خمسة قرون أو ستة . وأكثر من ذلك أننى أرغب عن مسرات الحياة الحسية فليس الأكل إلا وحشية لا تطاق وما أسنان الإنسان إلا رمز تلك الوحشية[١] » . « ولو أمكننا البحث فى معاهدنا العديدة عن دكتور واحد فى الكيمياء والفلسفة يستهويه هذا البحث لما اضطررنا إلى الجلوس هنا نشاهد مايجرى حولنا من تهتك وخلاعة ، فسوف نعهد إليه أمر تحضير خلاصة للحم تتضمن كل ما ينسجم وحاجات أجسامنا . . . عند ذاك سيصبح الناس رشيق القوام بعيدى النظر حتى أنهم سيتمكنون أن يروا المواخر منسابة فى بحار القمر[٢] » .

(١) مطبخ الملكة بيدوك ص ٥٩ و ص ١١٥ .
(٢) مطبخ الملكة بيدوك ص ٥٠ .

وبعد هذا الحديث الخيالى الأثيرى يحتدم شجار عنيف بين الكاهن وتلميذه جاك حول الفتاة التى يحبها يؤدى بالكاهن إلى ارتكاب جريمة القتل ثم الاختفاء فى الأدغال والغابات ، وبعد ذلك تدفعه الشهوة الجامحة إلى اختطاف ابنة اليهودى موسائيد ، من رواد الأدب القديم ، فيجد هذا الوالد فى طلبه فإذا ماوقع على أثره طعنه طعنة نجلاء تخمد أنفاسه ، وهكذا تنتهى القصة بقتل الكاهن الذى ظل زمنا معذباً بين شهواته وتقاليد مهنته .

ويذهب أناتول فرانس إلى أن التاريخ يكونه عامل واحد هو العلاقة الجنسية بين المرأة والرجل . والتاريخ بأى لون ظهر وبأى شكل بدا لاتتعدى حقيقته العامل الجنسى . ورأيه هذا مصور تصويراً بارعا فى روايته « الزنبقة الحمراء » ، تلك القصة الحرية بأن تدعى دراسة تحليلية للميول الجنسية وللخطيئة الدينية ممتزجة بتعليقات الأبيقورى الرقيق العواطف شولت . وكأنما رمى من وراء روايته هذه إلى التدليل على أن الحكمة مزيج من الفلسفة والحب ، وهذا أوفر الاثنين قسطا . « لم أجد من يهدينى السبيل السوى . . . إنما كنت أهتدى فى سيرى فى الحياة بشعورى بالجمال . وهل وجد الإنسان أحسن من الشعور بالجمال قائداً ؟ . . . لو خيرت بين الجمال والحقيقة لما ترددت فى اختيار الأول . . .

فليس فى هذا الوجود من حقيقة غيره [١] » . إن الدوافع الجنسية كما يعتقد فرانس مصدر الإحساس الفنى ، وأكثر من ذلك أنها تؤلف القدر الأكبر من نبوغ الفنانين .

فى هذا الدور من أدوار حياته الأدبية يعلن فرانس ، بلا مواربة أو خجل عقيدته الأبيقورية ، ويظهر بلا تردد ما يبطن من دوافع جنسية ، وهو شاعر بالغبطة والرضى ، كما يشعر الطفل إذ يمتص إبهام يده باللذة والاطمئنان .

والخطيئة لا وجود لها فى عرفه ، بل هى من مبتكرات فئة من الناس استطاعت أن تكبت شهواتها . وكل ما يلام عليه المرء هو سوء اختياره السبل المثيرة لتلك الشهوات . « وكم خدمت المسيحية الحب ، إذ حرمته على الناس فجعلت منه إثماً كبيراً [٢] » . وينقل متحمساً فى كتابه « على الصخرة البيضاء » صلاة غادة من جينوس ريفيرا وهى تتضرع للسيدة العذراء . « يا أيتها الوالدة المقدسة التى حملت بمشيئة الله دون أن ترتكب إثماً أو دنسا ، امنحينى المقدرة على ارتكاب الخطايا وإتيان الآثام دون ما حمل

---

(١) الحياة الأدبية — مقدمة المجلد الثانى . وكذلك ص ١١٣ .

(٢) حديقة أبيقور ص ١٧ .

أو زرع[١] » وها هو نيقياس يميط اللثام عن دوافعه الجنسية وبافنتيوس تتملك الشهوة عقله فتطفىء حرارة إيمانه دون أن يدرك لها وجوداً . وعقيدة أناتول أن لكل شيء فى هذه الدنيا ثمناً ، ولكن متعة النفس ومسرات الحياة أغلاها ثمناً .[٢] وأن متع النفس أسمى بكثير من أى نوع من أنواع نكران الذات وحرمان الجسد . وهو يهاجم علانية النظرية القائلة بأن تعذيب النفس وحرمانها من التمتع بشهوات الحياة يسمو بالإنسان ويرفع من ذاته . ويتجلى ذلك عندما خطب فئة من العمال التجئوا إليه « لا تستمعوا للقسيسين والكهان الذين يبشرون بتعذيب النفس وبنكران الذات . فليس فى هذه الحياة ما يجدى غير المتع والمسرات . . . وعلينا ألا نخشى التلذذ بالجمال والتمتع بالحب ، وألا نعرض عن كل ما يبعث فى نفوسنا السرور والرضى[٣] » .

وأبيقورية فرانس ، خيالية كانت أم واقعية ، تجعله مؤمناً كما آمن أستاذه أبيقور من قبل ، بأن الأشياء كلها مؤلفة من ذرات منظمة تنظيما متباينا . « وما أبدع تنظيم الذرات المكونة لجسم

---

(١) على الصخرة البيضاء ص ١٧ .
(٢) الحياة الأدبية — المجلد الأول ص ٢٢٣ .
(٣) نقلا عن شانكس فى كتابه أناتول فرانس ص ٢١٧ .

المرأة[١] » وإن كان ما جاء فى كتابه شجرة البق يغاير إيمانه هذا .

« يقول المسيو تريموندر « ألا حظت تلك المرأة الحسنة التكوين » . . فيرد عليه الطبيب «وهل بين النساء من يتوفر فيها هذا الوصف . . » فيجيبه المسيو تريموندر «إنك لتذكرنى بالطبيب الإخصائى بأنامل الكفين وأصابع القدمين . . ولو كنت من هذا الصنف من الأطباء لفاتك إدراك ما للنساء من قدرة . .[٢] » .

ومع هذا فقد ظل أناتول فرانس حياته عبداً للمرأة يجتذبه جمالها ويأسره سحرها . ولم يغظه منها إلا طول لسانها . ويحدثنا فى تمثيليته القصيرة « الرجل الذى تزوج امرأة بكماء » عن قاض عثر بعد لأى على من يستطيع إعادة النطق لزوجته . وقبل أن يتم الجراح عمليته أخذت الزوجة تمطر زوجها وابلا من الأوامر : « هات لى مرآتى . . . عليك أيها المغفل أن تقدم لى فى يوم ميلادى فستاناً حريرياً وشالا قطيفيا أستر به كتفى » . ثم تسترسل فى الكلام استرسالا يفقده صبره وجلده فيسرع إلى الجراح متوسلا إليه أن يكف عن إتمام العملية عسى أن تعود الزوجة إلى بكمها . لكن الجراح يأبى ذلك لمخالفته شرائع الطب . فلم يبق

---

(١) الآلهة الظماء ص ١٦٥ .

(٢) شجرة البق ص ١٤٦ .

للقاضى إلا أن يضع نفسه بين يديه ليعطل جهاز سمعه[١] .

وليس من السهل معرفة رأى أناتول فرانس فى الرجل . إنه امتدح المرأة التى تتزوج مرتين مع أنه القائل « إنك إن حاولت أن تبقى لك ذكرا فى قلب المرأة فكأنك حاولت أن تطبع ختما على صفحة الماء الجارى . »[٢] وعنده أن النساء معذورات فى تعذيبهن الرجال لأنهن بعملهن هذا ينتقمن لأنفسهن . فالرجال لا يحبون النساء لذاتهن وإنما لإشباع شهواتهن . وإلى ذلك يشير على لسان جيل وهى تحذر جاك « على المرء ألا يكون أنانيا فى حبه — الحقيقة التى لم يدركها الرجال بعد ، ومن مهمتنا تعليمهم إياها[٣] » .

وفى حديقة أبيقور يدلل على مدى تأثير المرأة فى حياة الرجل . المرأة أعظم مؤثر فى الرجل ، فهى التى تدعوه إلى أن يكون أنيساً بعشرته حسناً باختياره ، مترفعاً دون ما اعتزاز فى نفسه أو عجرفة فى طباعه . وهى التى تعلم القلة من الرجال فن التحبب والاستهواء ،

---

(١) الرجل الذى تزوج امرأة بكماء ص ٥١ .
(٢) مطبخ الملكة بيدوك ص ١٨٤ .
(٣) مطبخ الملكة بيدوك ص ١٢١ .

والكثرة منهم فن الابتعاد عن كل ما يدعو إلى السخط والاشمئزاز[١].

والمرأة المثالية فى نظره ، هى تلك التى تختطف الألباب وتذهب بالعقول عند مايضىء جمالها ويبهر ، فإذا ما تصدع أوت إلى دير من الأديار تخفى فيه كارثتها . ولربما كانت المرأة أسعد حالا وأطيب نفساً فى عصر الأديان والخرافات مما هى عليه الآن فى عصر العلم والشك . وتتجلى فكرته هذه فى خطابه الموجه إلى المرأة :

« ولكى تكونى الكائن العجيب ، ولكى تصبحى المصدر الأعلى لجميع ما يقدم من ضحايا ولكل ما يرتكب من جرائم لا محيص من أمرين : أخذك بأسباب المدنية التى وهبتك قناعا تخفين وراءه حقيقتك ، وتمسكك بأهداب الدين الذى أحاطك بكل مايبعث فى النفس ريبة وشكا . وبغير هذين لا يتم لك سلطان . إنك اليوم لغز كما أنك خطيئة . . . والتأمل والتفكير لايجديانك نفعاً . . . . مخلصاً أقول لك لو كنت بدلك لأعرضت عن كل ما يوصيك به الأطباء المحرومون من نعمة التبصر . . . الذين يقولون عنك مريضة عند ما نراك تلتهبين روحا وتتقدين جسما . . . أما فى « الأسطورة الذهبية » فلك غير هذا المقام وفيها لا ينادى

---

(١) حديقة أبيقور ص ٤٦ .

عليك إلا بالحمامة البيضاء وزنبقة الطهر وريحانة الحب . ومن يشك فى أفضلية هذه النعوت على ما يصمك به الأطباء من تهور وجمود عقلى وعته ، منذ أن سيطر العلم على كل شىء حتى على مجثم الطير ... حذار ثم حذار ، فقد بدأت تتبدد سحب سحرك ، وقريباً يتكشف القناع عن لغزك[1] » .

(١) حديقة أبيقور ص ١٩ .

الشّاك

يقول مونتاين « لا تكن حكيما أكثر مما يطلب منك وإلا كنت أحمق [1] » لكن أناتول أهمل هذا النصح لأنه درس كل شيء فأدرك فى آخر أمره أن ما كان يبحث عنه بعيد عن الحقيقة بعد السراب .

إن المعرفة الواسعة تؤدى حتما إلى إضعاف المعتقدات وزعزعة المسلمات ، وما إن يتوغل المرء فى التفكير ويتعمق فى البحث عن الحقيقة حتى يأخذ بنيان معتقداته بالتصدع . « خير للإنسان أن يكون ذا نظر صائب بالأمور والأفضل له ألا يكون رأياً فيها من أن يكون خاطئاً [2] » وهذه النظرات وأضرابها جعلت أناتول فرانس يشك فى كل شيء ، وكأنما جمع نظراته فى الحياة فى « حديقة أبيقور » مما دعا ميشو أحد كتاب سيرته لنعت مؤلفه هذا بدليل الجاحدين » .

---

(١) Ne Plus sapias quam necesse estne obstupescas

(٢) جزيرة البنجوين ص ١٥٦ .

ويذهب فرانس إلى أبعد مما ذهب إليه تاين ورينان وغاسندى ومنتاين ، فإذا ماجحد هؤلاء المذاهب جميعها وكفروا بالمعتقدات كلها فإنه ارتضاها برمتها لأن ليس فى الأديان والفلسفات على زعمه ما يمكن اختياره ، ولذلك فلا مفر من ابتلاعها بكل ما فيها من نظريات ومذاهب . وهل من شك أشد مرارة من هذا ، أم هل من سخرية أقسى لذعاً منها ؟

وليس حبه للكثلكة بأكثر من حنين المرء إلى بلد ولد فيه فأحبه . وعنها يقول « إن تعاليمها المتباينة ليست إلا أساليب قديمة كانت تتبع فى الحساب والتنجيم يوم أن ظهرت لأول مرة . . . وأنظمتها وتوصياتها الصحية وما تحرمه على الناس من مأكل ومشرب وما تبيحه لهم منها فمثل وأساليب بدائية اتبعها الإنسان فى بدء تحضره[1] » .

ويعجبه التنافر فى أجزاء الكون وانعدام التناسق فيها أكثر مما يعجبه نظامها وانسجامها . وربما عزا الترابط بين هذه الأجزاء إلى أنها حلقات فى سلسلة واحدة » . والحقيقة الواقعة أن هذه الحلقات تحتل مواضع من تلك السلسلة كثيرة التعقيد ، حتى أن

(١) بيير نوزير ص ١٣٥ .

إبليس بكل ما لديه من منطق وحيلة عاجز عن تبسيطها وفك عقدها[١] » . وإذا ما فرض علينا التسليم بوجود سلسلة واحدة تربط أجزاء الكون بعضها ببعض فلابد أن تكون تلك السلسلة قوى جبرية عمياء لا تعرف للرحمة والعطف معنى . وإلى فكرته هذه يشير فى روايته La Muiron على لسان نابوليون عند مايقول وهل من مفر لرجل مما قدر له ؟ لقد كان بروتس يؤمن بما لإرادة الإنسان من سلطة شديدة عليه ، وبروتس لم يبلغ القوة التى بلغها غيره . لكن عقيدته هذه وهم لا يقره عليه أحد من عظماء الرجال الذين أدركوا مدى تحديد ضروريات الحياة من سلطانهم . . . إن هؤلاء لا ينزعون إلى الثورة شأن الأطفال الصغار . وبعد هذا ما قيمة الحياة ، أليست منحنياً خطه سهم ؟[٢] » .

إننا نعيش على قطرة من الوحل تدور حول فقاعة من غاز ، ومن المحتمل « ألا تكون أجزاء الكون الأخرى أحسن حظاً مما نحن فيه . ألم يسيطر ناموس الكفاح وسنة النزاع على الكون المترامى الأطراف سيطرتهما على هذه الأرض . . . إنك إن عشت أتلفت وإن قمت بعمل صالح آذيت . . . الكفاح والبطش نواميس

(١) نقلا عن ميشو فى كتابه « أناتول فرانس » ص ١٩ .
(٢) نقلا من براندس فى كتابه « أناتول فرانس » ص ٧٥ .

غمت الطبيعة وفرضتها علينا قوى معادية لنا . إن الكون ليفنى نفسه بنفسه . وكلما ازددت إمعاناً فى الأشياء ، ازددت يقيناً بأن الطبيعة لا عقل لها . . . ذلك لأنها لم تدلنى بعد وهى معلمتى ومدربتى الوحيدة إلى ما يثبت أن لحياة الإنسان قيمة ما . إن الغاية الوحيدة التى وجدت من أجلها المخلوقات هى أن يكون بعضها لبعض طعاماً وإن خاتمتها متماثلة . . . وجميع ما يحيط بى يدفعنى للإيمان بأن الحياة العضوية شر ابتلى به عالمنا وحده . أما الفكرة القائلة بأن فى السموات اللامتناهية من يأكل ويؤكل ففكرة تعلوها صفرة الموت[1] » .

والخلاصة : « أن العالم مأساة نظمها شاعر فحل » تروى لنا فيها قصة وحش بشرى قذف بالفتاة التى عاشرها زمناً إلى عباب السين من أجل قنينة خمر رهاناً[2] » .

وفى قصة أخرى من قصصه يمزج فرانس التشاؤم باستنكاره التضخم الأدبى ، قيل لملك إنه لم يبق من عمره سوى بضعة أعوام ، فدار فى خلده أن يطلع على تاريخ العالم قبل رحيله إلى الأبدية ،

---

(١) حديقة أبيقور ص ١٢ وكذلك عن إمرأة من أغصان الصفصاف ص ١٩ و ص ٢٠ وعن الإلهة الظماء ص ٦٨ و ص ٦٩ .

(٢) المجلد الثانى من الحياة الأدبية ص ٧٥ .

فوكل إلى جماعة من حكماء مملكته أمر كتابة التاريخ المطلوب . وبعد عام اشتد به السقم وشعر أن ساعاته الأخيرة تدنو فطلب أن يوافوه بما أنجزوه فوجدهم لم ينتهوا بعد من تدوين تاريخ ماقبل التاريخ . فأمر بتركيز جميع مايتمتعون به من علم وما يمتلكونه من جهود لتحقيق ما تصبو نفسه إليه . وأشرف الملك على الموت والحكماء لم ينتهوا من مهمتهم هذه . وفى ساعة الاحتضار جيء بأكثر المؤرخين حكمة ليحدث الملك بإيجاز عن تاريخ العالم فيقول له الحكيم : « ولدوا — أى البشر — فقاسوا ضروب العذاب فقضوا نحبهم » .

ولا يجد أناتول فرانس فى الطبيعة وتاريخها ما يعجبه اللهم إلا ما فيهما من دعابة لا شعورية . وهل من شيء أكثر إثارة للضحك مما يظهر به الناس من رياء وغرور وحمق ؟ إننا لسنا إلا طعاماً لضحكات الآلهة .

ونجزم أن الخالق سخر من خلقتنا بعد أن أتمها لأنه وجدها معيبة مخزية ، ولم يحدث أن سلك صانع نحو ما أنتجته يداه سلوك الخالق نحو من خلق ، سلوكا كله كراهية واشمئزاز . فإنه ما إن أكمل صنعهم حتى عاجلهم بطوفان ما حق لم يبق منهم إلا القلة

النزرة[١] » . ومع ذلك فإنك ترى الناس فى عالمهم الملىء بالآلام ، يعوضون عن كل وفاة بعدد من المواليد وأنهم يزدادون إخصاباً كلما اجتاحتهم حرب طاحنة . أليست هذه مهزلة كبرى ؟

ويعبر أناتول عن تشاؤمه هذا أدق تعبير على لسان المسيو بونار عندما يتحدث مع خادمته تيريز « وليس من المنطق أن نأتى بمواليد جديدة إلى هذا العالم ونحن مدركون أن الألم والسقم والفاقة وحوش فاغرة أفواهها لابتلاعها ، ومع ذلك فإن الجريمة ترتكب كل يوم وأن جميع ما فى الأرض من فلاسفة عاجز عن الحد من هذه العادة السخيفة[٢] » وهكذا يختتم فرانس فلسفته التشاؤمية بفرضه أن الإنسان سيظل فى غيه هذا حتى تنطفىء شعلة الشمس وتخبو نارها فتجدب الأرض وتمحل .

عند ذاك يهلك الناس جوعا وتختفى معالم حضارتهم ، « ولن يكون مصير آخر من يبقى منهم أحسن من مصير أول من وجد منهم عليها . فإن الفاقة والجهل والضعف الجسمى والضمور العقلى

---

(١) مطبخ الملكة بيدوك ص ١٠١ .

(٢) بونار ص ١٠ (كان لفيلسوفنا بنت واحدة ، سورانا الجميلة ، تزوجت من أحد أحفاد رينان ثم فقدته فى الحرب الماضية وتوفيت عام ١٩١٨) .

مصائر لا بد أن يصير إليها . . . وربما حلت أنواع أخرى من المخلوقات الموضع الذى كان يحتله ابن الإنسان أيام عزه وتحضره ، فثمة كائنات لا فقارية لا تأخذهم شدة البرد كما تأخذ الإنسان . . ومن يدرى فربما أعد لهم المستقبل وقرر هذا المصير لكى تصبح الأرض ملكا لهم بعد أن ظلت مدة طويلة ملكا لنا[١] » .

« كل شىء فى هذا الوجود مقضى عليه بالفناء وإن ناموس الموت مسطور على جبين الحياة » . « إننى أصبحت أشعر شعوراً عميقاً بأن الأحداث تمر أمامنا مراً سريعاً ومهما بحثنا عما تنطوى عليه من حقيقة فلن نجد لذلك أثراً . شعورى هذا يدفعنى للقول بأن البشر ليسوا إلا أشباحاً سريعة التغير هائمة فى خضم من الخداع والتمويه ، ويجعلنى دائم الحزن كثير الرحمة والشفقة ببنى الإنسان[٢] » .

ويصف فرانس كونار « بأنه يستخف بالناس استخفافا رقيقا ، « وكثيراً ما ردد فى كتاباته قوله المحبب إلى نفسه » دعنا نمنح الناس رحمة ممزوجة بالسخرية والاستهزاء لما يقاسونه من حكامهم ومحكميهم[٣] » .

---

(١) حديقة أبيقور ص ٢٦ وكذلك ص ٢٨ .
(٢) نقلا عن شانكس فى كتابه « أناتول فرانس » ص ٥٣ .
(٣) نقلا عن جيرارد فى كتابه الحضارة الفرنسية فى القرن =

ويشك فرانس فى العلم شكه فى اللاهوت ، ولا بدع فالشك نقمة إذا ما اتخذها المرء قاعدة لأحكامه رجع بنفسه إلى نقطة البدء فى حياته أو إلى أبعد منها . لقد بدأ أناتول فرانس حياته مؤمناً برسالة العلم وبمدى مافيه من قدرة لإصلاح العالم وتخليصه مما يكتنفه من شرور وآثام ، ذاهباً فى معتقده هذا مذهب رينان وتاين ، ولكنه نكص عنه بعد أن توغل فى مجاهل الفلسفة . أليس هو القائل « إننى أزدرى العلم بعد أن أحببته كثيراً ازدراء الباحث عمن ظنها تحقق أحلامه وتشبع هواه[1] » . إن العلم يبحث عن المادة والمكان والزمان ، أى أن موضوع بحثه ما خفى من الأمور وما بطن من الظواهر ، وكل ما ليس له وجود من المؤثرات . إننا لا نسلم إلا بحقيقة واحدة هى « الفكر » فجميع ما هو خارج عن ذات الإنسان مجهول وما هو كامن فيها لغز مبهم . « ومهما توغلنا فى البحث عن الحقيقة فلن نجد إلا أنفسنا[2] » . وما أعجز العلم وما أضعفه . أيستطيع تغيير الطبيعة الإنسانية ؟ وأى تبدل جوهرى يطرأ على الإنسان إن ظلت طبيعته على ما هى عليه ؟

= التاسع عشر ص ١٣ .

(١) تأملات جيروم كونار ص ١١٣ .

(٢) بيير الصغير ص ١١٠ .

لقد آمن رينان بسيطرة العلم «لأن العلم يستطيع اختراق الجبال . . . وإيمانه هذا دفعه إلى الاستسلام إلى حلم بهيج يمثل الفضيلة المستمدة من روح العلم[١]» غير دار أن العلم والتهذيب لا يبعثان الفضيلة فى قلب الإنسان ولا يزيدان فى صفاء نفسه ، وكل ما يستطيعان تحقيقه هو تدريب كفاياته وتقوية ما يكمن فى نفسه من خدمة . وليس من المبالغة أن يقال إن الفساد والغش والخداع طغت على العالم منذ أن انتشر العلم وعم التهذيب .

والفلسفة لا تقل عن العلم شراً « فالنظريات التى ابتدعها الحكماء ليست إلا قصصاً أرادوا بها إدخال السرور على قلوب الدائمى الطفولة من الناس . . . وللقصص طريق خاص تنفذ فيه إلى قلبى ، كما كان لها طريق خاص إلى نفوس الإغريق . وإننى لا أجد المتعة إلا فى الشعر ولا طمأنينة للنفس إلا بالفلسفة فهما بمثابة ألف ليلة وليلة للعالم العربى[٢]» .

ويحجم أناتول فرانس عن أن يبتدع لنفسه فلسفة خاصة ، مفضلا أن يضع نفسه موضع الراوى لقصة شخصية تاريخية تارة تكون بونار أو كونارد وأخرى برجرى أو ثروبلت أوبروتو ،

---

(١) حديقة أبيقور ص ٥١ .

(٢) الحياة الأدبية — المجلد الثانى ص ١٣٤ كذلك نقلا عن شانكس ص ٦٩ .

وعلى لسان هذه الشخصية المتغيرة يعبر عما يسر من أفكاره وعما يحزن . والقصة ذاتها ليست كبيرة القيمة لديه وإنما الفكر التى تلوح من بين ثناياها هى ما يهتم به كثيراً . وهذه الظاهرة جلية فى كتبه ورواياته جميعها . حتى أن أحد ناشرى كتبه نشر أحد مؤلفات فرانس دون أن يراعى التصنيف الطبيعى لأجزاء الكتاب ، فتلاقفته الأيدى دون أن يدرك أحد من القراء الخطأ الشكلى فيه وقد غاب ذلك حتى على المؤلف نفسه[١] ولا بدع فلهذا الأسلوب من التأليف روعة فى النطق وتحرر من قيود الأدب الشكلى . إن فرانس على بينة من تناقض فكره ، ولم يحاول مرة تبرير ذلك . وعلى النقيض « فقد كانت نفسه تزداد اطمئناناً كلما أكثر من التأمل فى الحرب القائمة بين أفكاره[٢] » كأنما تعكس آراؤه المتباينة مافى الحياة من متناقضات .

« لابد أن يستنير الواحد منا بفلسفات عدة وإن اختلفت ، وإذا ماحرم أحدنا من ذلك فكأنما حيل بينه وبين حريته فى تكوين عقائده فى الأمور ، وما فائدة قسره على اعتناق فلسفة واحدة فقط[٣]

---

(١) نقلا عن جاسل فى كتابه « أناتول فرانس » ص ١٠٨ .
(٢) نقلا عن ميشو فى كتابه « أناتول فرانس » ص ١٧ .
(٣) المجلد الثانى من الحياة الأدبية ص ٤ .

إن الحقيقة سر غامض تساءل عنه كثيرون ، ومن بين جميع أسئلة الباحثين لم يلق فرانس حكمة إلا فى تلك التى تساءل عنها « باليت » من قبل ولكن أين أولئك الذين يستطيعون أن يجيبوا عنها ؟

ويشبه فراجيومانى الحقيقة ، فى كتاب « مأساة الإنسان » بقرص عديد الألوان يعكس اللون الأبيض إذا ما أدير بسرعة متزايدة . وعلى غرار ذلك تبدو الحقيقة إذا ماامتزجت متناقضات عدة . ويؤمن أناتول ، كما آمن مونتاين من قبل ، « بأن من أفنى نفسه من أجل فكرة واحدة فقد أعطى للظنون قيما معنوية عالية[1] » « وما النظريات إلا فِكَرٌ ابتدعت ونشرت فى عالمنا لتضعف إيمان الأفراد بالحقائق الواقعية المناقضة لها ، ولتوحد الشقاق بين أبناء المجتمع الواحد ولتبعث الغرور فى قلوب فئة صغيرة من الناس فيزداد تضخما فكرياً حتى يتفجر كما تتفجر المناطيد[2] » .

« لن يدرك المرء الحقائق العليا عارية من الشوائب مهما فكر وتأمل ، وإنما إحساسه وشعوره كفيلان بذلك . . . فما الفِكَرُ إلا صورة تبعث الرعب فى النفس . بل هو إكسير فعال يذيب الكون برمته ، وإذا ما أعد الناس لأن يفكروا تفكيراً واحداً فسيقضى

---

(١) نقلا عن شانكس فى كتابه « أناتول فرانس » ص ٦٩ .
(٢) كتاب صديقى ص ٢٨٤ .

على العالم وسيكون مصيره الفناء . لكننا مهما ابتلينا فلن نخشى هذه العاقبة السيئة ... إن الحقائق التى تتكشف للمفكرين ستظل بعيدة عن الإخصاب ، أشبه شيء بالصحارى المجدبة ... وإن من ظن أن الكتل البشرية يسوقها الفكر سوق السائمة فقد أشرف على الجنون ... هنالك قوى عمياء ، صماء ، بكماء تسعى للقضاء على التعصب الفكرى ، كما تقضى على الحكومات والشرائع وتفعل فيه فعلا لا يقاوم وإن كان بطيئاً ... وغريزة ازدراء الفكر تتملك الناس أجمعين مهما اختلفوا مللا ونحلا . وهم موقنون بأن عداءهم للفكر يحقق لهم أجدى رغباتهم ... أما الحقائق العلمية التى لا تجد لها منفذاً إلا إلى عقول فئة قليلة من الناس فلن يكون مصيرها غير الاستقرار فى أعمق قرار للعقل استقرار الحجر الكبير فى قاع البحر . وهى بهذه الحال لا تحدث فى النفس نزوعاً أو جيشانا ، ولن تقوى على مغالبة شطط العقل أو ما يبديه من اعتداد فى الرأى . إن الحقائق التى تغذى المختبرات بها الناس والتى تتحكم بى وبك ، ستهن وتضعف خيال عقول السواد ... فهل استطاع العلم أن يغير شيئاً مما جاءتنا به الأديان ، أم هل تيسر له الوقوف دون اجتذاب تقاليدها السخيفة للناس ؟ إن جمهرة الناس لن تستسيغ حقائق العلم . والشعوب تحيا على ما انحدر إليها من أساطير وخرافات تستمد

منها حياتها وتتخذ منها أسباباً لوجودها . فثمة قصص خرافية ، وإن كانت قليلة العدد تحرك الملايين وتدفعهم إلى الحياة . أما الحقيقة فلا أثر لها فى حياتهم . إنها ضعيفة أمام الباطل ، وربما أدى هذا الضعف إلى فنائها يوماً من الأيام . . . ها هى برنادوت اللورد تجتذب الملايين من أبناء الإنسان إلى جبال البرنيز ، ومع ذلك فإن صديقى بيير لافييت يؤكد لى أن عهد الفلسفة الواقعية ليس ببعيد عنا . . . كأنما يوم يتغلب فيه العلم على ما يسود عالمنا من خرافات قريب جداً . . . ها هى الأديان تبعث تارة أخرى وهى أكثر قوة مما كانت عليه قبلا ونحن واجمون عاجزون عن الصمود دون ذلك . . . ومما يضحك ادعاؤها أن ماتبشر به من معتقدات يتمشى وروح العلم . . . ومع هذا فإن كل شىء جائز الحدوث فى هذه الدنيا — حتى انتصار الحقيقة على أعدائها[1] .

وفى المعرفة متعة ، ولكنها متعة ممتزجة بأسى . وهل تتم سعادة لإنسان بغير الجهل ؟ فواعجباً منا نخفى جهلنا ونحن لا نتقن إلا

---

(١) تاييس ص ١٧٥ المجلد الثانى من الحياة الأدبية ١٧٣ كونار جيروم ص ٢٨٠ و ص ٢٣٠ ، وبيير نوزير ص ١٣٢ و ص ١٣٥ خاتم الياقوت ص ١٤٣ و ص ١٤٦ و ص ١١١ ، شجرة الصفصاف ص ١٠٧ .

إياه ! » كم أصاب الأقدمون عندما اعتبروا النبوة منحة ، إلا أنها منحة تكتنفها الظلمة ، وفيها الشيء الكثير من الشؤم والنحس . ويعبر كاسندرا عن معتقدهم بقوله : « لو قدرت لنا معرفة ما تأتى به الأيام قبل وقوعه لما بقى شيء يستحق أن نحيا من أجله[١] . فالمسيو برجريه كما يقول أناتول يستحق الرحمة والعطف لأنه دائم التفكير فى الحياة ، ولأنه أدرك أنها مأساة كبرى خاصة منها حياة الريف[٢] .

ويوضح فرانس نظراته إلى الحياة على لسان كونار عندما كان يتحدث وأحد طلبته « الله اسأل أن يقيك شرور التفكير كما وقى أعظم ما أبدع من قديسين وأسمى ما خلق من أرواح خاصة منها أولئك الذين شملهم بعطفه وخصهم برحمته وقدر لهم هناء خالدا ونعيماً أبديا[٣] » .

وكم أحب أناتول فرانس عذاب الفكر وألم النفس « ومثل الحكماء المفكرين مثل المؤمنين الذين بلغوا مرحلة عالية من مراحل سمو الأخلاق حتى أصبحوا يتذوقون مافى نكران الذات من لذة

(١) المسيو برجريه فى باريس ص ١٧٤ .
(٢) نقلا عن ميشو فى كتابه « أناتول فرانس » ص ٣٥ .
(٣) نقلا عن برانوس فى كتابه « أناتول فرانس » ص ٣٥ .

ومنعة . فأوصلهم تفكيرهم إلى أن كل مايحيط بنا من أشياء صور خادعة لا تنطوى على شىء من الحقيقة . وهذا ما جعلهم يغترفون من معين الألم الفلسفى حتى الارتواء ، وفى هذا اليأس الصامت من الغبطة والرضى ما أنساهم أنفسهم . ذلك الألم العميق فى مصدره السامى فى كنهه الذى لا يستبدله من تذوقه بجميع مسرات الحياة الطائشة وبكل ماعند السواد من آلام باطلة[1] » ولماذا لا يتفلسف المرء وفى ذلك لذة له وهوى ؟ وكم من مرة ردد ما كان يدعيه طلبة العلم من قبل « شىء واحد لا يتعبنا فى هذه الحياة — طلب المعرفة » وعنده « أن مجاهل الفكر أعظم ماارتاد الإنسان[2] » . وهو أسمى من العمل وأرفع . « ولو كان لنا بوليون ذكاء سبنوزا لارتضى العيش فى عزلة عن الناس فوق مرتفع عال منصرفا لتحرير كتب أربعة[3] » . وكم كان مبدعاً فى نقل نواحى حساسة من فلسفة أبيقور : « سعيد من كانت له ملكة المعرفة . فإنه لن يحاول أن يستلب السلطة من أبناء وطنه ، ولن يسعى لإتيان أى عمل بعيد عن الحق والعدل . وإذا ما أطال التفكير فى الطبيعة

---

(١) حديقة أبيقور ص ١٢٠ .
(٢) الحياة الأدبية — المجلد الثانى ص ٣٠٣ .
(٣) المسيو برجريه ص ١٨٠ .

الخالدة ، ذات النظام المنسجم الثابت ، وأطال التبصر فى أصول الأشياء وعناصرها بقيت روحه نقية طاهرة لاتدنسها رغبات مخجلة ولا تلوثها أمور من شأنها الإساءة إليه[١] » والحقيقة أن لاشىء فى هذه الحياة أسمى من الفكر وأشرف « إن ما يثير العجب ليست مسالك الكواكب والنجوم وإنما قدرة ابن الانسان على قياسها ومعرفة أبعادها . . . فما الأرض إلا حبة رمل سابحة بين عوالم لاحصر لها ولا عد ومع ذلك فهى أعظم من جميع مافى الكون من عوالم لأن فيها وحدها مخلوقات تشقى وتتعذب[٢] .

وما « مأساة الإنسان » إلا سجل لحياة أناتول فرانس فى دورها الثانى . فهو قصة سمو روحه وخيبتها ، فيه يتجلى إبداع تصويره تقوى فراجيوفانى وسعادته . وفيه يروى قصة هدم هذه الذات البسيطة السمحة عندما علم إبليس الراهب الشاب كيفية التفكير . وما أشد وعيد ملك الجحيم عندما يقول « سأبعث الأسى فى قلوب أولئك الرهبان عندما أطلعهم على الحقيقة وسأثير الحزن فى نفوسهم عندما أكشف عن بصائرهم حجب الجمود العقلى . سأجعل الفكر يخترق عقولهم كما تخترق السهام قلوبهم . فإذا

---

(١) الحياة الأدبية — المجلد الثانى ص ١٣٣ .

(٢) حديقة أبيقور ص ١٦ و ص ٥ .

ما أدركوا الحقيقة فارقهم ما كانوا يتمتعون به من سعادة . ذلكم لأنه لا سعادة بغير الوهم والخداع ولا اطمئنان نفسى بدون الجهل » . وتحقيقا لما انتوى يقرب إبليس بين جيوفانى وأحد العمال الكادحين فيطلعه هذا على ما فى النظام الاقتصادى للمجتمع الحديث من مساوىء وما ينشأ عنه من مآس ومظالم . ويكفى ذلك لإثارة النقمة فى نفس الراهب والسخط فى روحه ، فينحدر إلى المدن والقرى مبشرا بعهد جديد هو العدل الاجتماعى . وما إن يمضى عليه يوم ببعثه الروحى هذا حتى يغدو فى غيابة السجون لأنه أبى نبذ آرائه حول الحريات الاجتماعية والاستغلال الاقتصادى . ولكى تكتمل المأساة يحضره إبليس فى سجنه ليجادله فى بعض نواحى اللاهوت ، وكلما أمعن إبليس فى نقاشه تضاعفت شكوك الراهب المسكين . ويظل ملازما له حتى يأتى على آخر بقية لمعتقداته اللاهوتية ليتركه كريشة فى مهب الريح مرتجفا من زمهرير الإلحاد والجحود . وينغمر جيوفانى فى سورة من العذاب ولكنه عذاب ممزوج بكبرياء وأنفة ، ومع ذلك فإن عذابه يشعره بشىء من الرضى والاطمئنان بعد أن زال ما كان مخيما على عقله من أوهام وأخيلة . وإذ تدنو ساعة الفراق يتبع جيوفانى رفيقه وهو يخاطبه : « يا هذا : لقد خلقتنى شقيا تعسا بعد أن اقتفيت أثرك ،

أنت يا من يجب أن تؤمر على الخلق أجمعين . . . إننى من أجلك أعذب، ومع ذلك أحبك وأصطفيك . أحبك لأنك مبعث شقوتى وكبريائى ، وأصطفيك لأنك مصدر سرورى وحزنى . منك ينعكس البهاء وتنبعث القسوة وفيك تظهر الرغبات ويتجلى الفكر . بقدرتك تذوقت ثمرة المعرفة وبمشيئتك تلمست الخير والشر . . . إنك تملكتنى لأننى عذبت فى سبيلك » . وقبل أن يفترقا يميل جيوفانى برأسه على كتف مغريه منتحبا باكيا بحرقة وألم .

إن التبدل الذى طرأ على حياة أناتول فرانس خلف فى نفسه ولا ريب جراحا بالغة الأثر . فلفرانس نفس وإن فاضت عطفا على البشرية ، اضطرمت شوقا متزايدا إلى الفلسفة والتفكير الحر . كأنما الطبيعة أرادت أن تجعل منه راهبا وإن كره ، وظل هذا النزوع ملازما له فى جميع أدوار حياته حتى أنه لم يتردد فى نعت ذاته « بالبندكتى الجاحد » . وأحاط نفسه بكثير من المظاهر الكنسية ، الزجاج فى « كرمة سعيد » عديدة ألوانه الزاهية والمكتبة كثيرة الشبه بهيكل كنيسة ، والرداء الذى يرتديه مسح قس فى معبده . وطاقيته قبعة راهب فى صومعته . وبعد هذا كله ليس بدعا أن ينظر أناتول إلى العالم نظرة قس نحو تلموده » . وكان

يعنى بجمع الآثار وباقتناء التحف الدينية عناية فائقة لا نحسب أن أحدا غيره كانت له ما كان لفرانس من هواية . . . أينما وليت وجهك وأنت فى صومعته وقع نظرك على أكداس من تلك التحف . فمن أيقونات إلى كئوس وأوعية مقدسة إلى غيرها مما يستعمله القسس فى كنائسهم والرهبان فى أديارهم[1] » .

ما كانت أذناه لتنسى يوما أنغام الموسيقى الكنيسية ، كلا ولا عيناه لتغمض عن أطياف الطقوس الدينية القديمة . وكانت أصداء الكثلكة تتردد فى أعماق روحه كما تتجاوب أصوات أجراس كتدرائية غائرة فى أفق بعيد بين الوديان والسهول . فهو أحد أولئك الفرنسيين الذين قال عنهم ستيبوف إنهم يتمسكون بكثلكتهم بعد أن يجحدوا مسيحيتهم .

وكان يمتع نفسه بكل ما له علاقة بالدين اللهم إلا ما يحتمه اللاهوت من فروض واعتقاد بالخطيئة . وكان يحب الأساطير القديمة حبا لازمه منذ أن كانت والدته تروى أخبارها . فسخر هذه الأساطير لنقد ما كان فى اللاهوت من مراوغات خفية ولهدم الفروض التى لا تتمشى والطبيعة الإنسانية . وهام فى

(١) نقلا عن جسيل فى كتابه « أناتول فرانس » ص ١٣٩ .

النواحى الغامضة وما يعد من الأسرار فى الدين وإن لم يكلف نفسه عناء الإيمان بها والاعتقاد بصحتها . فكان يجد فى تلك الأساطير وهذه الأسرار تفريجاً عما تفرضه حقيقة الحياة عليه من قيود . وكثيرا ما مزج تلك الأساطير بأخبار القديسين ونزعاتهم ، كما روى عن « الوسيوس جونزاجا ذلك القديس الذى فاق الجميع بحشمته وتواضعه . . . ومع ذلك فإنه ما استطاع يوما إخفاء دوافع نفسه إذا ما انفرد ووالدته[1] » . ومما لا ريب فيه أن تهكمه هذا يعكس ناحية من نواحى سخره من الحياة واستخفافه بها . وصوره التهكمية وإن بدت جميلة جذابة إلا أنها بعيدة عن الواقع كل البعد . ونجزم أن أحاسيسه تظل دوما بعيدة عن سيطرة تفكيره . فقد تنم بعض أقواله عن ميل لا شعورى لفتح فؤاده أمام معتقده القديم » . ما أضل من اعتقد بأننى أسر عندما تفتضح الأخاديع فما أن تظهر حقيقة واحدة منها حتى تحتل محلها أخرى جديدة . ومن يدرى فربما كانت الثانية أشد خطرا من الأولى . ومن أمعن النظر وأطال التدقيق فى هذه الضلالات يجد أن ما تقادم منها أقل ضررا مما استجد فالزمن

(١) الحياة الأدبية — المجلد الأول ص ٢٤ .

كفيل بصقلها والإقلال من وطأة أثرها ... وما دام ابن الإنسان يتغذى من ثدى بنت حواء فسيظل خاضعا لسيطرة المعابد والألغاز الإلهية . وسيبقى عائشا فى أحلامه . وهل من ضرر إذا ما كانت تلك الأحلام بعيدة عن الحقيقة وما دامت خالية من الغلو ؟ ألم يقدر على الإنسان أن يقضى حياته غارقا فى خداع أبدى ؟ وهل من ريب فى أن هذا الخداع صفة ملازمة لحياته[1] ؟ » .

(١) حديقة أبيقور ص ٧٣ .

الأشتراكى

وراء هذه السخرية الممزوجة بالرقة واللطف وخلف ذاك اليأس المشع حيوية وفاعلية ، تختفى عوامل شديدة الأثر وتكمن قوى هدامة لم تحاول اجتثاث أصول معتقد راسخ فى النفس فحسب بل ترمى إلى إبادة شعب عزيز أقام مجده على أشلاء أبنائه البررة وسقاه بدمائهم الزكية . إن الشعب الفرنسى يمتاز بروح وطنية صادقة أين منها ما تدعيه الشعوب الأخرى ، ويسمو على العالم المتحضر بثقافة غنية عامرة دونها ما لديه من ثقافات ، فهو شعب سلك مجاهل فى التفكير عجز غيره عن ارتيادها .

تأمل شاباً فى العقد الثالث من عمره نذر نفسه لوطنه ، وأوقف حياته على المدينة التى احتضنته وهو رضيع . تصور هذا الشاب بعد أن بلغه ما أحاق بسيدان من بلاء وهو الذى قاسى مرارة حصار باريس وكارثة احتلالها ، وشاهد عن كثب صمود حكومة الشعب ومقاومتها وقد أضناها الكفاح ودب إلى فؤادها اليأس ، ثم أدرك المصير الذى آل إليه أعضاء تلك الحكومة وقاسى هول

فتك البورجوازيين بهم وكيف أشبعوهم عذاباً وقتلا . حتى إذا ما شارف العقد الخامس من عمره تجلى له مدى تفسخ السياسة الفرنسية وتدنيها ومبلغ تردى الفئة الحاكمة وتنابذ أعضائها ، وتبين مانجم عن استيلاء الرأسمالية على أسباب الحكم من سيئات ، وشعر بوطأة النفوذ الدينى ، وشدة تحكم رجال الكهنوت فى الجيش واستغلالهم طبقة الخواص ، واتساع نفوذهم اتساعاً هدّ كيان الدولة وزعزع أركانها . فكيف يرجى لهذه النفس الحائرة التى تتنازعها تلك القوى المختلفة تفاؤلا ورجاء ؟ وما أخزاه من تفاؤل إن أثير !

كانت تلك الأعوام لفرنسا أعوام تفكير ومحنة ، بل عهد انخذال ووهن . طأطأت أنصاب عزها التليد رءوسها نادبة مجدها الضائع وكرامتها المهانة ، وعزيز على فكر تكتنفه تلك الظروف ويخيم عليه ذلك العهد البغيض أن يحلق فى أفق السياسة تحليقه فى سماء الفلسفة .

ويعزى شك فرانس فى السياسة ونظام الحكم إلى إغراقه فى مطالعة كتب التاريخ ، إغراقاً جعله يبتسم ساخراً من آمال الناس فى نظام الحكم الديموقراطى وأمانيهم منه . فالناس بحكمهم الديموقراطى المزعوم أقرب إلى حياة البهائم والوحوش منه إلى

حياة تسودها الحرية و يعمها العدل الاجتماعى . إن الأب كونار يأبى التوقيع على إعلان حقوق الإنسان لما احتوته مواده من تفريق ظاهر بين الإنسان والغوريلا ، وإلى هذا يضيف فرانس « إن من يتدخل فى أعمال حكومة بنى الإنسان فعليه أن يتذكر أنهم ليسوا إلا قردة . » وفى ذلك يقول كونار أيضاً :

« وما تغيير أساليب الحكم إلا سبيل سخيف أجوف يسلكه الإنسان مدفوعاً بذكائه . . . أما التبدلات الفجائية فليست أكثر من إحلال نفر بدل آخرين ، وهل ثمة ميزة بين الذين يؤلفون السواد ؟ إنهم سواسية فى الخير والشر . . . الناس بعد الحركات الإصلاحية هُم هُم لا يختلفون عما كانوا عليه قبلها . فهل قللت حركات الإصلاح من أنانية ابن الإنسان ، أم هل أضعفت من جشعه وتهالكه على جمع المادة أو غيرت مما تسر نفسه من قسوة وما تبطن من جبن وما تخفى من حماقة وسخف ؟ ومع ذلك فالناس يتزاوجون ويتكاثرون والمخدوعون بزوجاتهم يتضاعفون والمجرمون يتزايدون . وهذا الوضع الشائن يعكس صورة بينة لما فى العالم من نظام اجتماعى فاسد[1] » .

(١) تأملات جيروم كونار ص ١٦١ و ص ١٨٢ .

والأحداث فى العالم ، كما يؤمن أناتول ، لابد أن تكون بطيئة فى سيرها متزنة فى تغيراتها . « لم تحدث فى عالم ماضينا أحداث واسعة المدى ولن يجرى ذلك فى عالم مستقبلنا . إن العالم لم يعرف بعد تغيرات سريعة وأحداثاً مفاجئة ، والتبدلات الاقتصادية تقتفى فى سيرها وفى فاعليتها أثر القوى الطبيعية فى مسالكها[1] » فظروف المجتمع تتلازم بعضها مع بعض وعواملها الأولى تضمن نمواً للمجتمع تدريجياً . ويقارن فرانس فكرته هذه بنظرية « لايل » فى طبقات الأرض حول تجانس الأحداث الطبيعية والتى تشير إلى أن التغيرات الطارئة على سطح الأرض لا تحدث من أثر اندفاعات مفاجئة بل من جراء تآكل تدريجى فى موضع ما من الأرض وارتفاع بطىء فى موضع آخر منها . « وما أعظم النتائج إذا ماروعيت هذه النظرية القائلة باستمرار الأسباب فى الأحداث الطبيعية فى عالمنا الأخلاقى والاجتماعى والسياسى » . « عندئذ تجد النزعة للمحافظة والميل إلى الثورة عوامل واحدة كفيلة بالتوفيق بين النزعتين[2] » . ولا بدع فقد تراءت هاتان النزعتان فى فلسفة فرانس ، تلك الفلسفة التى تبدو ذات مظهرين ، ثائرة على الوضع

(١) حديقة أبيقور ص ١١٩ .
(٢) حديقة أبيقور ص ٩٠ .

العام مندفعة نحو التغيير والتبديل مرة ، ومحافظة ساخطة على كل ثورة عنيفة أو تغيير سريع أخرى .

كانت النزعة الأولى لفلسفة فرانس المحافظة الشديدة والحرص على التراث القديم . « فالشاك لا يثور على القانون ، وكيف يثور وهو لا أمل له بحال خير مما هو فيه[1] » ويقول نقياس « لا وجود للخير أو للشر إلا فى مخيلتنا فالحكيم منا هو من اتبع ماتوحيه إليه عاداته ومنافعه فى أعماله كلها . إننى لا أتمرد على تقاليد العصر لأننى حريص على أن يعتبرنى الناس من الصالحين[2] » .

كان أناتول فرانس يؤمن فى أيامه تلك بأن الضعفاء سيظلون طعما للأقوياء ولهذا يعزون أنفسهم بأمانٍ يوطوبية وبحياة سماوية هى خير مما هم فيه من حياة . فقد ارتضى لنفسه العزلة فى برج عاجى يطل منه على مآسى الحياة ومساوئها بدلا من أن يجعل من نفسه مكافحا من أجل الحرية ومحاربا فى سبيل العدل ومناضلا للدفاع عن الحق . « لقد كنت ميالا دوما إلى اعتبار الحياة مشهدا يطال النظر إليه ، لأننى وجدت فى هذه الدنيا لكى لا أتفرج على

(١) الحياة الأدبية . المجلد الأول ص ٧ .
(٢) تايس ص ٤ .

ما احتوته من مشاهد[١] » . وهكذا كان فرانس فى أدوار حياته الأولى لا تعنيه أمور الناس ولا يكترث لما كانوا يقاسونه من أوضاع إلا بقدر ما تعنى معروضات اللوفر السائح الْعَجِل . وكان فى أكثر قصصه راغبا عما بين الناس من اختلافات ، مثله كمثل من اعتلى قمة جبل أو من أطل من بين السحب متفرجا على مواكب الحياة كأنه الإله الأبيقورى . فهذا الانعزال هو مبعث ما كان يطغى على فكره من اطمئنان وما كان يكسو نفسه من استقرار .

على أن التحولات فى الاتجاهات الفكرية لا يتطلب أكثر من وميض ضوء أو بارقة أمل . فما أن وقعت واقعة درايفوس عام ١٨٩٥ حتى غير أناتول فرانس اتجاهه الفكرى فيمم وجهه ناحية الشعب بعد أن كان مترفعا عنه . ودرايفوس هذا ضابط فى جيش فرانسا اسرائيلى المعتقد ، اتهم ببيع وثائق عسكرية إلى أعداء البلاد — الألمان ، ولذلك حكم عليه بالتجريد من رتبه العسكرية وبالحرمان من حقوقه المدنية وبالنفى إلى جزيرة الشيطان عند ساحل غينيا الفرنسية . وتقيض الأقدار لدرايفوس جماعة من أبناء فرنسا الذين لا يحول حماسهم القومى دون إنصاف من

(١) كتاب صديقى ص ١١٣ .

لا يعتنق الدين الذى يعتنقون ، أخذت على عاتقها البحث عن حقيقة هذه القضية الغريبة ، وفضح أسرارها والكشف عن خباياها . فأعلنوا للملأ أن وثائق الإدانة لم تكن وثائق حقيقية بل من صنع فئة أكل قلبها الحسد فدفعها إلى ارتكاب جريمة التزوير . فانبرى إميل زولا فى روايته « إننى أتهم » متحديا المغرضين والأفاقين ومتهما إياهم بجريمة التزوير .

كان أناتول فرانس فى الماضى يستخف بزولا ويقسو بنقد رواياته حتى أنه قال عنه مرة : خير لزولا لو لم تلده أمه . لكن زولا فى روايته « إننى أتهم » غير زولا فى رواياته الأخرى . ألم يكن صائبا فى دفاعه محقا فى اتهاماته ؟ وذلك يكفى لدفع فرانس للوقوف بجنب زولا وللأخذ بناصر درايفوس . ففى صباح اليوم الذى نشرت فيه « إننى أتهم » روعت باريس بظهور « احتجاج المفكرين[1] » ، وكان اسم فرانس فى رأس قائمة المحتجين .

ما هو الدافع يا ترى الذى حرك فرانس وجعله يقفز على حين فجأة من برجه العاجى إلى وسط المعمعة ؟ ربما كانت صداقته لبعض مفكرى أبناء اسرائيل وكتابهم عاملا مهما فى هذا الانقلاب ، ولكن كرهه للتعصب الدينى الذميم وحبه للتسامح

(١) Protestalton des Intellectuels نشر عام ١٨٩٨ .

من العوامل الكبرى التى دفعته إلى أن يتقدم الصفوف فى هذه القضية الغريبة .

إن فرانس أحب الأساطير كأساطير ، ولم يعنه كثيرا أن تسترجع الكنيسة عزتها الضائعة وسطوتها المفقودة ، ولكنه لم يصطبر على ضيم أصاب بريئا نتيجة لسيطرة الكنيسة على الجيش ، ففى ذلك بادرة لاستغلال القوى العسكرية وتسخيرها لاستعادة العهد الدينى القديم . إن الروح الفولتيرية التى كانت كامنة فيه ثارت فى وجه الظلم والعدوان فأذاق المعتدين المدفوعين بدافع التعصب الأعمى صنوفا من همز النقد الفرنسى ولمزه . فأخرج أناتول الكتاب تلو الكتاب والرسالة بعد الرسالة حتى غمر الرأى العام الفرنسى بفيض من سخطه وحنقه جاعلا من دعابته الرقيقة نارا مكتسحة ومن قلمه سيفا بتارا . وكانت خطبه تترى لا يثنيه عنها تحريض المغرضين أو اعتداء الرعاع الغاضبين . ومع أن الجماهير كانت تؤلب على باب داره لإسماعه البذىء من الكلام وللتعريض به فإنه سار فى نضاله ولم يهدأ له جنان إلى أن استعيدت محاكمة درايفوس وبرئت ساحته وأطلق سراحه وأعيدت له جميع حقوقه وحرياته أى بعد أن ربح المعركة بشتى نواحيها . لقد كشفت قضية درايفوس عن حقيقة فرانس وسريرته ، فقد

كانت تتخفى وراء شخصيته الشاكة ذات عليا تؤمن إيمانا عميقا بالعدل والمساواة ، وتتستر وراء نزعته الفنية روح المحارب المقحام ويطغى على أبيقوريته الظاهرة حبه للبشرية وأخوته لبنى الإنسان .

ويعد « التاريخ المعاصر[١] » سجلا للتحول الفجائى فى حياة أناتول وتصويرا دقيقا لتكامله الفكرى خلال الدور الثالث من حياته . ففى هذا الدور انحدر من برجه العاجى راضيا أن يخوض غمار الحياة الواقعية . وبعد أن كان يشرف على شئون الحياة من عل أصبح فى هذا الدور أحد المناضلين عن حقوق الفئة الكادحة من أبناء المجتمعات . وروایاته « شجرة البق فى الشارع العام[٢] » و « عاملة أغصان الصفصاف[٣] » و « خاتم الياقوت[٤] » و « المسيو برجريه فى باريس[٥] » إن هى إلا فصول مستقلة لقصة واحدة يكمل بعضها بعضا ، يرسم فيها

---

(١) Histoire Coutem poraine .

(٢) The Elm - Tree at the Mall نشر عام ١٨٩٧ .

(٣) The Wicker - Work Woman نشرت عام ١٨٩٨ .

(٤) The Amethyst Ring نشرت عام ١٨٩٩ .

(٥) M. Bergeret a Paris نشرت عام ١٩٠١ .

فرانس صورة لمكائد أولئك الذين خلقوا قضية درايفوس على لسان أستاذ وكلب له برعا فى الفلسفة وفى العلم .

وبطلا هذه الأوديس الفكرية اثنان المسيو برجريه وكلبه ريكيه ، والأستاذ والكلب صنوان فى الفلسفة ، وربما فاق الكلب أحيانا سيده ببعد نظره وبزه فى فلسفته ، لأن الكلب ينظر إلى شئون الإنسان نظرات لا يلوثها التعصب المقيت . وفى الوقت الذى يحلل المسيو برجريه صورة الإله وهيئة الدولة ، كان ريكيه يحلل تصرفات الإنسان ويحاول محاولة خاصة تعليل أسباب تصرفات سيده برجريه . وفى « أفكار ريكيه » يضمن فرانس فلسفة هذا الحيوان الذى ابتلى بأبناء آدم . « كلما اقتربت إلى الإنسان والحيوان والجماد تعاظمت حجومها فإذا ما دنت منى أو كادت تلاصقنى بدت لعينى ضخمة جداً . أما أنا فلا يتغير لى حجم أينما حللت . . . وللكلاب شذا أين منه رائحة الإنسان . . . وليس ثمة قيود على فمى شئت تكلمت ومتى رغبت فهت بما يخالج نفسى . أما سيدى فإن معانى الأصوات التى تصدر من فيه أقل وضوحا وأكثر إبهاماً من تلك التى تعبر عما أفوه به من أصوات ، وما أنطق به فكر معينة أما ماينطق به سيدى فنزر المعانى يسيرها . يتجلى فى هذه القطعة خيال عميق وتصوير رقيق لأنانية

الإنسان ولتعصبه . وفى تلك التى تشير إلى الدور الذى لعبه الكلب ريكيه عندما انتقل المسيو برجريه إلى باريس تأمل يفيض حساسية وتبصراً . « كان ريكيه يطوف غرف الدار بعد أن خلت مما فيها من أثاث وأمتعة ، والحزن يطغى على قلبه والكمد يملأ نفسه . . . فثمة أناس لم تقع عليهم عينه من قبل رثت ثيابهم وغلظت قلوبهم كانوا يزعجونه كلما اضطجع مستقراً . . . فإذا ما رمى نفسه على كرسى أخذوه منه وإذا ما نام على سجاد انتزعوه من تحت جسمه المعذب كأنما فرض عليه أن يظل قلقاً لا يدرى أين يخفى رأسه فى دار عاش بها طويلا[1] » .

وما كان ريكيه وحده يشاطر المسيو برجريه فى داره تلك فقد كانت زوجة الأستاذ التى لم تخلص إلى زوجها يوما ولم تصن نفسها من أجله تساكنهم « وما أكثر المفكرين الذين تخدعهم زوجاتهم » . كما قال فراجيو فانى[2] . وفى أحد الأيام وجد المسيو برجريه زوجه فى حضن صديق له فلم ينبس ببنت شفة مكتفيا بإهمالها والإعراض عنها كأن لا وجود لها فى بيته . وكان هذا الإهمال كافيا لأن تضيف خزى الطلاق إلى خزيها الأول ،

(١) المسيو برجريه فى باريس ص ١٢ .
(٢) مأساة الإنسان ص ٧٩ .

فاحتقار الناس وازدراؤهم إياها أسهل عليها من إهمال من تساكنه وإعراضه عنها . وبعد أن يتخلص المسيو برجريه من زوجه يستقدم شقيقته زدى المعروفة بطهرها وتقواها لتشارف أمور بيته .

وفى هذه المجلدات الأربعة يترسم القارئ مراحل تطور المسيو برجريه وتحوله من محافظ متمسك بالقديم من التقاليد إلى ثائر من أجل العدل والمساواة ، شأنه فى ذلك شأن فرانس مبدع شخصيته . ومع أن المسيو برجريه لم ينفك عن نقد الديمقراطية ومن الانتقاص من الثورة : إلا أن شيئا جديدا لامس نفسه فخلقها خلقا جديدا .

« مَن من الناس يرتضى الثورة ، ويسعى إليها ، غير المخبول الذى يأكل قلبه البغض . . . والحق إننى لا أعلق كبير أهمية على الشكل الذى تحتذيه الدولة . فالتبدلات فى السلطات الحاكمة قلما تغير أحوال الأفراد وظروفهم . ونحن لا نعتمد على الدساتير ولا نثق بالبراءات وإنما نومن بالغرائز والأخلاق . . . كلا إننى لا أعتقد أن الناس طيبو السريرة بفطرتهم . ويبدو لى أنهم بدأوا يتخلصون من بربريتهم البدائية فهم باذلون جهدا ليس بقليل من أجل إقامة عدل وفى سبيل رحمة لا يعرفون لها نتيجة . والناس

بعيدون كل البعد عن اليوم الذى يعطف فيه الإنسان على أخيه فيستعيضون عن الحرب بسلم دائم ، ذلك اليوم الذى يخجل فيه الناس من صور الحروب وإعلان رسوم المعارك فيخفونها لأنها تنم عن مشاهد مخجلة مفسدة . وإن وحشية الإنسان وتهالكه على المادة يتناقصان كلما قل بؤسه وشقاؤه ، وإن تقدم الصناعة يؤدى حتما إلى صقل الطباع وتهذيب السلوك الفطرى . وعندى أن النجاة لا تأتى إلا من الآلة نفسها . فالشرارة التى أضاءت زجاجة ليدن ، والنجم الصغير الذى بدا لناظر الفيلسوف المأخوذ بعجائب الكون خلال القرن الثامن عشر كفيلة بتحقيق هذه المعجزة . إن العلم — لا الناس — تواتيه السلطة الجبارة ، والسخيف من الأقوال سيظل سخيفا وإن رددته أفواه ستة وثلاثين مليوناً من البشر . والمعروف عن السواد أن له قابلية فائقة لإظهار عبوديته وخنوعه ، ويزداد الضعف كلما كثر عدد الضعفاء ومتى كان للرعاع فاعلية وقوة . فما يمتلكون من طاقة زهيد لا يظهرونه إلا عندما يضنيهم الجوع . وكيف يتيسر لنا تغيير العالم ؟ بقوة الكلام وحدها . فليس ثمة قوة أشد فتكا من هذه . فهى سلاح ماض يستحيل التغلب عليه ، وبدونه يتحكم فى العالم وحوش كاسرة . أى شىء يقى العالم من شرورهم ؟ لا شىء غير الفكر وإن كان عاريا

أعزل . إنه الفكر الذى يهيمن على العالم فيسخره لأغراضه[١] » .

وفى باريس يطلب المسيو برجريه إلى روپار النجار الاشتراكى أن يثبت رفوف مكتبته ، وفى فترات استراحة النجار من عمله يكشف الفيلسوف عن سريرته ويستدرجه فى الحديث ليعرف منه صنوف العناصر المتطرفة ، ومع ذلك فإن الأستاذ ينتهى إلى أن « ليس فى هذا البلد اشتراكيون عديدون وهذه القلة لا تجمع كلمتها على هدف واحد[٢] » . ولا يخفى العامل شكره الأستاذ على قدومه باريس ومساهمته فى الدفاع عن درايفوس . « إنك جئت بأمر لم يألفه الناس من قبل فقصمت بعملك ظهر الفئة التى كنت تنتسب إليها ، وأبيت اقتفاء خطوات أصحاب الخوذ النحاسية وأولئك الذين ينعتون أنفسهم بأبناء السماء » — رجال الجيش ورهبان الكنيسة — فيجيبه الفيلسوف « إنى يا ولدى أزدرى المزورين وهل جاز ذلك لمن تضلع فى فقه اللغة[٣] » ؟

إن ظهور روپار رمز للاتحاد المقدس بين العمال والمفكرين

---

(١) شجرة البق فى الشارع العام ص ١٧١ والمسيو برجريه فى باريس ص ١٧٣ و١٧٦ و ١١٨ و ص ١٨٢ .

(٢) المسيو برجريه فى باريس ص ٦٤ .

(٣) نقلا عن جسيل فى كتابه « أناتول فرانس » ص ٢٣٥ .

من أجل الدفاع عن درايفوس . بل إعلان للانقلاب الطارىء على فرانس الذى حوله من محافظة الخاصة إلى اشتراكية العامة . لقد كان فرانس قبل هذا يعطف على جمهرة الناس من أبناء قومه ؛ ولكنه ، بعد ذلك التحول الفجائى ، غير ما كان عليه بالأمس . فهو اليوم يسير بحسب إيحاء قلبه غير آبه بما كان يحول فى مخيلته من شك حول الحياة اليوطوبية التى تحلم بها العامة من الناس . إنه أمات فى نفسه مبدأه القائل بالحياة من أجل الفن ، وشعر بأن الوقت قد حان لاستغلال نبوغه من أجل الدفاع عن أولئك المظلومين . ولم يكتف بذلك بل حاول إزالة الفوارق بينه وبين الناس فانتسب إلى الحزب الاشتراكى وخاض غمار ميدان الكفاح من أجل حريات أبناء قومه وضمانهم الاجتماعى . فلم يتردد فى الوقوف خطيبا كلما دعت الحاجة إلى ذلك دون أن يغشى نفسه زهو أو كبرياء . وكان يحضر مايعقده العمال من اجتماعات سرية ليتحدث فيها إلى رجال ونساء أضناهم العمل وأشقتهم مفاسد الوضع الاقتصادى شأن وليم موريس فى انكلترة . وليس فى تاريخ الآداب صورة أجمل من تلك التى رسمها هذا العبقرى لنفسه فى هذا الدور من حياته ، تلك الصورة التى تعكس الأكاديمى الذى ينحدر من برجه العاجى إلى سوح الشعب لينضم إلى صفوف

مكافحى البغى والظلم . وكم روع موقفه هذا جنان السلطات الحاكمة فكانت تبعث بعملائها تلو أذنابها إلى الاجتماعات التى يخطب فيها فرانس ليسيئوا إليه وليشوهوا الرسالة التى كان ينادى بتحقيقها . وما كانوا مستطيعين عملاً يشفى غليل قلوب أسيادهم تلك القلوب التى دنسها البغض وأكلها الظلم ، اللهم إلا الهتاف « تحيا الفوضوية » ومتى أرعبت هذه الكلمات من استخف بجميع السلطات ؟ ويصفه بول جسيل ، أحد كتاب سيرته ، وهو فى هذه المرحلة من حياته عندما انتقل الفيلسوف من آفاق الفلسفة إلى ميادين السياسة . « ما كانت الكلمات تطاوعه وهو فى اجتماعاته العامة ، فيضطر إلى قراءة خطبه وكانت تكسب كلماته نغمة تخرج من أنفه دون أن تضعف من جلاله أو هيبته . فإذا ما حاول إصلاح ذلك تلكأ وأضاع سلسلة تفكيره . ويكفى ما يبدو عليه من انفعال ليثير الحماسة فى قلوبهم ويدفعهم إلى الهتاف عاليا حماسة وإعجاباً[1] » .

ولم يكن فرانس مؤمنا كل الإيمان بما كان يطالب به الاشتراكيون ، ولكنه اتفق وإياهم على ما كانوا ينقمون منه ، ويسخطون عليه . ألح الاشتراكيون بوضع حد للحركة العسكرية .

(١) أناتول فرانس بقلم جسيل ص ٢٣٥ .

كذلك سخط فرانس على هذه الحركة ونقم منها النقمة كلها . ورأيه فى التجنيد العام أنه أعظم خطيئة ترتكبها الحكومات . فاسمعه معبرا عن رأيه على لسان شوليت « وما التجنيد إلا من مبتكرات العصر الحديث الشنيعة الأثر . . . أفليس من الخزى والعار للملوك والجمهوريين أن يجعلوا قتل البشر بعضهم لبعض فريضة عليهم ، إن عملهم هذا جريمة الجرائم ، ففى العصور التى تنعتها اليوم بعصور البربرية وكل الأمراء أمر الدفاع عن إقطاعياتهم إلى جنود احترفوا صناعة الموت . فإذا ما دفعت الجنود لاقتحام حرب من الحروب أظهروا كل ما لديهم من براعة وحيطة وحرص للدفاع عن سلامتهم ، ولهذا فقد كان عدد من كان يصرع منهم مهما عظمت تلك الحروب ، دون أصابع اليد عدا . وإذا ما خرج الأمراء إلى مثل هذه الحروب ، فإنما يخرجون غير مكرهين ، وأكثر من ذلك أنهم يلقون لذة فى التقتيل والتعذيب ، وهل وجد هذا النفر من الناس لأمر أكثر شرفاً من هذا ! ! ولم يحلم أحد من الناس أيام القديس لويس بإرسال قادة الفكر ورجال العلم إلى ميادين القتال ، وما فكر الناس فى اختطاف العمال من حقولهم ومزارعهم لحشرهم فى سوح الحروب . أما اليوم فإننا نقول للمرء أن بانخراطه فى سلك الجندية شرفاً له عظيماً ، فإذا لم يعجبه هذا

الشرف الموهوم أطلقنا النار عليه وأخمدنا أنفاسه . وإذا ما أذعن لرغبتنا فإنما يذعن خائفا وجلا ، لأن الإنسان أكثر الحيوانات الأليفة خضوعا واستسلاما . . . ومما يلاحظ أن لملابسنا تأثيراً عظيماً فى كياننا النفسى . . . فما أن لبس الجبان قبعة من فرو دب حتى اندفع لتحطيم رأسه من أجل خدمة الملك . والشعوب المتحضرة مثل كلاب الصيد تدفعهم إلى الهلاك غريزة شاذة جامحة دون ما سبب أو ربح . والحقيقة أن البشر إذا ما جمعتهم فكرة واحدة تملكتهم رغبة ملحة هى القضاء على أولئك الذين يفكرون تفكيرا مغايرا لتفكيرهم خاصة إذا ما كان التباين بين التفكيرين طفيفا[1] » .

وتتستر وراء الروح العسكرية مطامع استعمارية ، ودوافع الاستيلاء على بلاد شعوب ضعيفة وإقامة حكم استبدادى فيها . ومن سوء طالع تلك الشعوب أن فى بلادها كنوزاً طبيعية عظيمة ، وليس لها من الجيوش ما يكفى للدفاع عن ثرواتها .

« لقد عرف فراجيوفانى أن من يعرض سلعته للبيع عدو لمن يبتاع تلك السلعة ، وإن فى فنون الاتجار سوءا أكثر مما فى

(١) المسيو برجريه ص ٨١ ، مطبخ الملكة بيدوك ص ٨٠ ، خاتم الياقوت ص ١٦٣ .

فنون الحرب . إن استكشاف جزائر الهند الغربية والارتياد فى أفريقيا والملاحة فى المحيط الهادى أزالت الحجب عن أقطار كثيرة وجعلتها هدفا للأطماع الأوربية . وكأنما اتفقت ممالك البيض على تناسى ما بينها من ضغائن وأحقاد من أجل القضاء على الشعوب الحمراء والصفراء أو السوداء . وقد اندفعت خلال قرون أربعة اندفاعا جنونيا لسلب ما بقى من أقسام الدنيا ونهبها . ومع كل ذلك فإنها لا تخجل من نعت عملها هذا بمدنية حديثة[1] » . ويدعو أناتول عملها هذا بالخطر الأبيض .

كانت كتابات فرانس خلال السنوات الخمس الأولى من القرن الجديد تضطرم بنار الاشتراكية وتصطبغ بصبغتها . فإذا ما تحدث عن وال من الولاة قال « إن شعوره نحو الملكية لا يختلف عن الشعور الذى يُثيره شعاع القمر فى نفس كلب » . وإذا ما ذكر القانون ، سخر منه واستهزأ به ، « لأن القانون أراد المساواة بين الغنى والفقير فمنعهما من النوم تحت الجسر أو التسول فى الشوارع أو سرقة رغيف الخبز » . وأقصوصته Crainquebille[2] تعد ولا ريب من روائعه الأدبية وجوهرة فريدة فى السخط

(١) مأساة الإنسان ص ٦٨ ، الصخرة البيضاء ص ١٥٢ .
(٢) نشرت عام ١٩٠٢ .

والاحتجاج . يصور فيها بائعا متجولا ، عركته السنون فغلبته ، عجز عن تنفيذ أوامر الشرطة وقيودها ، فقبضت عليه واتهمته زوراً بأنه صرخ بوجه ضابط للشرطة « الموت للثور » عبارة الشتم التى كان يلفظها الشعب بوجه أعدائهم من رجال الشرطة . وعندما سيق المتهم البرىء إلى المحكمة عرض الضابط الجريمة المزعومة عرضا جعل المتهم يتوهم أنه حقيقة مرتكبها . فحكم على البرىء بالسجن عاما خرج منه وهو كسير القلب معتل الصحة مما جعل أصحاب الأعمال يرفضون تشغيله . ومما زاد فى عسره أن زملاءه البائعين المتجولين احتلوا الشارع الذى كان يرتزق من البيع فيه . وفى ساعة من ساعات يأسه وقد أضناه الجوع وأهلكته الفاقة ، حسب أن ارتكاب الجريمة التى سيق من أجلها إلى السجن سيعيده ثانية إلى حيث يجد ما يسد به رمقه . ومن المصادفات أن يمر فى تلك الآونة ضابط ، وما أن يقترب من البائع المسكين حتى يصرخ هذا بوجهه الجملة التى ظنها مرسلة إياه إلى السجن « الموت للثور » غير أن الضابط سخر منه وهز كتفه استهجانا ثم ابتعد والابتسامة تعلو وجهه .

« والصخرة البيضاء » هى اليوطوبيا التى رسمها فرانس للعالم . ففى دنيا هذه القصة يقضى الإنتاج على الملكية الفردية ، وتزال

القيود من العلاقات الزوجية فلا تبقى روابط بين المرأة والرجل لأن المجتمع مكلف بإعالة جميع أبنائه . وتسيطر حكومة اشتراكية واحدة على أوروبا لكل ممالكها ولا يبقى خارج نفوذ هذه الحكومة الاشتراكية إلا انكلترة . « ومع أن لانكلترة حكومة اشتراكية فإنها تحتفظ بملكها وبلوردانها حتى بشعور قضاتها المستعارة[١] » ومع ذلك فإن هذا التغيير لا يضع حداً للإصلاح فالمجال متسع لكل تجديد : « إذ لا يزال بيننا الفهم من الناس والمبذر ، الجاد والكسول ، الغنى والفقير ، السعيد والتعس ، القنوع والمتهالك وهذا أمر يستحق الذكر[٢] » .

واعترافاته هذه تنم عن أن الشيخ الشاك ظل طوال حياته متردد الميول ففضح بهذه الاعترافات نفسه وأظهر للعالم أنه لم يكن مؤمناً إيماناً أعمى بالمبادئ الاشتراكية وحسبه أنه استطاع وحده تصوير عالم يوطوبى فيه بؤساء وأشقياء . وربما ظن بعضهم أن هذه ليست جنته التى كان يحلم بها . لأنه كان فى قرارة نفسه فردى النزعة وربما كان فوضوياً بطريقته الفلسفية الجذابة . أفلم يفكر « بأن صانع الغلايين الذى حاول وليم مورس تصويره لنا بقصته اليوطوبية

(١) الصخرة البيضاء ص ٢١٣ .
(٢) الصخرة البيضاء ص ٢٣٨ .

ذلك الصانع الرقيق القلب الذى صار يعمل غلايين فى مدينة المستقبل فاقت بحسنها جميع ما تمكن من صنعه فى عالمه هذا ، لأنه وفق بمزجه الحب بما كان يصنعه من غلايين[١] » . والنزعة الفردية المتأصلة فى نفسه والتى جعلته يتمسك بآرائه فى الفلسفة والعلم والدين هى التى صيرته يشك فى كل شىء حتى التعليم الذى تهيمن عليه الدولة فى عالم اشتراكى .

وكان فى خطبه العامة لا يعنى بالفروق والمشاكل ذاهباً مذهب فولتير فى مشايعته الشعب الذى يناضل من أجله ولكن « ما أن تبدأ حرارة الكفاح بالخفوت حتى يرجع أناتول فرانس إلى شكه وتردده الفكرى . . . فكان ينقصه ولا ريب الإقدام والاندفاع الفكرى وقابلية القيادة ، تلك الصفات الملازمة لمن أراد أن يكون زعيماً لحزب[٢] » . فقد ظل قاصراً من غير قصد ، فى عالم السياسة ناشزاً على التقاليد ، مستعداً لسبر غور أصدقائه وأعدائه من غير تفريق ، فله عينان ثاقبتا النظر لا تخدعانه بل تمكنانه من الضحك عليهم جميعاً ، كما صور ذلك فى روايته جزيرة البنجوين[٣] .

(١) بيير الصغير ص ٦١ .
(٢) ميشو فى كتابه أناتول فرانس ص ١٢ .
(٣) Penguin Island نشرت عام ١٩٠٨ .

وجزيرة البنجوين هذه تعد ولا ريب أعظم ما كتب من روايات انتقادية جعل موضوعها تاريخاً رمزياً لفرنسا . فالأب مائل مبشر قطع من العمر مراحل عديدة ، تدفعه الأقدار إلى جزيرة نائية يكثر فيها الطير المعروف بالبنجوين . وما أن يقع نظر هذا القس على تلك الحيوانات حتى يحسبها صنفاً من بنى الإنسان . وبحكم الرسالة التى يبشر بها يشرع فى وعظها وفى تلاوة العهد عليها ثم لا يكتفى بذلك بل تسول له نفسه أن يعمدها مأخوذاً بشدة انتباهها وكثرة إصغائها . وما أن يفعل ذلك حتى تضطرب السماء وتهتز أركانه ، ذلكم لأن تعميد غير بنى الإنسان مخالف للقانون الإلهى . فيحتدم جدال دينى عنيف بين ساكنى السماء ينتهى بالإجماع على أن القانون الإلهى لا يبرأ من تلك الجريمة ، وأن زلة الأب مائل لن تغتفر إن لم تنسخ تلك الطيور بشراً بطريقة داروينية معجلة تعجيلا إلهيا . فتحدث المعجزة ، ويتم هذا النشوء المعجل ، ويضطر الأب مائل لِكَسْو أولئك المواطنين الجدد وستر عوراتهم . غير أن الذكور منهم يتجهون نحو من يستطعن التستر من الإناث ، تاركين اللاتى لا زال بعد فى عريهن متمتعات بوقارهن . والتناحر من أجل المرأه يؤدى إلى التناحر من أجل الملكية . فالذكور يعارك بعضهم بعضاً من أجل رفيقاتهم ومن

أجل امتلاك ما يستطيعون امتلاكه من الأرض . وخوفاً من أن تتفاقم الاختلافات بينهم تشرع القوانين وتخلق الموانع من أجل حفظ ممتلكاتهم . غير أن الفزع يطغى على فؤاد القديس مائل المسكين من فرط طمع تلك المخلوقات وحقدهم وتناحرهم منذ أن حل بينهم . وفى ساعة من ساعات حيرته ينجده قس زميل له مؤكداً له بأن البنجوين قائمون بما هو محتم عليهم . « أليسو موجدين قانونا ، ومحدثين ملكية ، وواضعين أسس حضارة » .

وينشأ عن هذا التطور السريع فى حياة البنجوين اتجاه صناعى جديد ليبلغ ذروته فى بلاد الأمريكان . ويرحل إلى تلك البلاد أحد البنجوين الذين نالوا قسطاً من التثقيف فيقول عنها ساعة وصوله « إن المساكن فيها لا يمكن أن تبتنى أعلى ما ابتنيت فيها بعد أن ضاقت بساكنيها وحشد فيها خمسة عشر مليونا ونيف من الأنفس » .

« وفى اللحظة التى تطأ قدماه أديم نيويورك وتضمه حجرات فندق عظيم من فنادقها مؤلف من طوابق أربعين وثمانية حتى تسخر لخدمته وللأشراف على راحته آلات صماء متحركة يدعوها الناس هناك بأوتوماتون . وبعد بضعة أيام يمتطى القطار العظيم إلى جيجانتوبولس عاصمة أطلنطيق الجديدة . يدهش عقله ويحار بما

فى هذا القطار من مطاعم وقاعات للألعاب ومسارح رياضية ومكاتب للبرق وللأعمال التجارية والمالية ، وثمة بيعة بروتستانتية ودار للطباعة تصدر صحيفة يومية كبرى . . . ويجتاز هذا القطار شواطىء أنهر عظيمة ويخترق مدناً صناعية جبارة تكاد السماء تختفى خلف ما يتصاعد من مصانعها من دخان ، مدناً مظلمة نهاراً متقدة ليلا ، كثيرة الضوضاء نهاراً عالية الضجيج ليلا » .

« وقد حسب هذا الفيلسوف أن فى هذه المدن شعبا له من مشاغله الصناعية والتجارية ما يلهيه عن إثارة الحروب ... وينتهى المطاف به إلى حضور جلسة من جلسات مجلس ممثلى الشعب ، فإذا ما وطئت قدماه قاعة المجلس وجد نواب الأمة جلوسا على مقاعد وثيرة واضعين أرجلهم على ما أعد ليكتب عليه . ثم يلقى الرئيس قائما وسط هذا الحشد الذى لم يكترث للإصغاء ولم يعن بالنظام ، معلنا بصوت خافت ... الحرب على بلاد المغول لأنها أغلقت أسواقها بوجه مصالح الولايات المتحدة ، ولذلك فإننى أقترح أن تبحث تكاليف هذه الحرب اللجنة المالية ... فهل من معارض . ؟ لا تصدق القرار . أما الحرب من أجل افتتاح أسواق زيلاندا الثالثة فقد انتهت بانتصار لمصالحنا لا مثيل له ... » عند ذاك تتملك الدهشة البروفسور اوبنوبايل فيستوضح من مترجم لازمه

فى جولاته فى هذه البلاد « أصحيح ما أسمعه ؟ أنتم شعب صناعى ومع ذلك تشغلون أنفسكم فى حروب طاحنة ! فيجيبه المترجم له مؤكدا أنها حروب صناعية ... فكلما زاد الانتاج ازدادت الحاجة إلى إثارة الحروب ... فنى زيلاندا الثالثة وقفنا لإخماد أنفاس ثلثى سكانها لنفرض على الثلث الباقى شراء ما تنتجه مصانعنا من مظلات وأطواق ! وفى تلك اللحظة ينهض نائب ضاق بدانة من بين وسط الجمهور معتليا المنصة وصارخا بصوت مزعج « إننى أطلب أن يعلن الحرب على الجمهورية الزمردية ، التى أخذت تنافس — وقاحة — ما نصدره من خنازير لصنع اللحم الكبيس والمقدد فى أسواق العالم كلها ! فيستوضح الدكتورا بنو بايل « ومن يكون هذا العضو » فيجاب « إنه تاجر خنازير ! ... » ولكن أليس من الغريب أن يصوت من أجل حرب بهذه السرعة وبهذه الكيفية . » ولماذا ؟ إنها حرب ليست بذات أهمية ، خاصة وأنها لا تكلف غير ثمانية ملايين من الريالات ؟ « وكم من الرجال ؟ » ... « الرجال محسوبون ضمن الملايين الثمانية ؟ عند ذاك يطأطىء الدكتور رأسه متألما يائسا ومرددا » . وما دامت الثروة والحضارة تسخر من أجل نشر الفقر وإثارة الحرب وإقامة البربرية ، وما دام طيش الإنسان وشروره ليست مما يسهل القضاء عليه لم يبق إلا أمر واحد فيه

الخير كله هو أن ينصرف العقلاء من الناس إلى جمع مقادير من المتفجرات كافية للقضاء على هذا الكوكب . ولا ريب أن تطاير شظايا هذا الكوكب فى اللا نهاية وإفناءه ، فيه فائدة للكون أجمع إن لم يشعر به . وسيرضى الضمير الكونى — إن وجد — عن هذا الفعل » .

ويبدع فرانس فى الكتاب السادس من جزيرة البنجوين فى تصوير قضية درايفوس أيما إبداع . فى هذا الجزء من الكتاب لا يتردد الساخر العظيم من الضحك حتى على نفسه . ثم ينتقل منه متحدثا عن ظهور نوع من العمل أكثر تنظيما وإلى بزوغ فجر ثورة عظمى . وفى الصفحات الأخيرة من الرواية تطغى ذهنيته الشاكة على نزعته الاشتراكية . فيعود واصفا ظهور نوع جديد من الطبقة المتنقلة ، ونظام جديد للاستغلال الصناعى . ويبلغ تشاؤمه مبلغه فى الصفحات الأخيرة من الكتاب عند ما يستعيد بأسلوبه الأخاذ الفكر التى افتتح بها روايته عن عبودية الناس بعضهم لبعض فيردد « لا يمكن ابتناء دور أعلى مما ابتنى ، وقد سخر خمسة عشر مليوناً من البشر من أجل بناء المدينة الجبارة » .

ولا ريب أن لأناتول فرانس هواجس عن الثورة . فثمة أمران بلغ ازدراؤه إياها غاية ما تستطيع طبيعته الدمثة من ازدراء . هذان

الأمران التوأمان هما الإكراه والتعصب . عندما كان فراجيوفانى فى السجن ، حبيساً من أجل خطاب ألقاه منددا « بأصدقاء النظام » تعرف عليه فوضوى فأخذ يقنعه للانتساب إلى حزبه قائلا « رغبتى الملحة هى أن أكره المجتمعات على نبذ القانون ، فإذا ما تم لى ذلك استطاع المواطنون العيش عيشة حرة رخية . وكذلك أريدك أن تعلم أننى سفكت دماء كل القضاة والجنود ، وارتكبت كثيراً من الجرائم من أجل النفع العام » . فيجيبه فراجيوفانى بحماسة : « إننى لا أرتضى العنف ! إذ أن العنف لا ينتج إلا عنفاً . وإن من تحدثه نفسه باقتفاء أثرك فإنما يكون قد زرع أديم الأرض حقداً وكرهاً . وسيمزق أقدام أولاده ما غرسه من أشواك ؛ سيقاسى لدغ ثعابين ما ارتكبه من آثام . وإننى لن أرضى لنفسى السير فى السبيل الذى سلكت ، ففى سفكك دماء قضاة غير عادلين وجنود قساة وقعت فى الخطأ الذى وقعوا فيه قبلك ، فلوثت يديك بالدماء كما لوثوا أيديهم . وما أسخف من يقول « إن نفوسنا لا ترتاح إن لم تقابل الشر بالشر » . ففى هذا فاتحة للعدل وللإنصاف وبغيره لا يكون عدل . . . « إنك إن أردت عصيان الطغاة فليكن عن طريق الحب . وحذار من التكبيل بالقيود

أو من سفك الدماء، وخير لك أن تعلن: «إننى لن أهدر دم إخوانى ولن أكبل أحداً بأصفاد[١]».

ويعيد فرانس ثانيـة فى «الآلهة الظماء[٢]» الفكرة القائلة بالقضاء على الصنف والتعصب المقيت. وحوادث هذه القصة تقع فى باريس فى عهد الإرهاب وبطلها إيفاريست عاملا من أتباع روبسبير المتطرفين المغالين فى إخلاصهم له. وكم من نفس اغتالها لأنه شك فى نياتها إزاء الثورة. والثورة فى نظر فرانس دامية قانية اللون، وهى ليست الملحمة الخالدة بل هى الفترة التاريخية التى تعبر عنهـا المقصلة. وثورات الشعوب إن هى إلا ظمأ الآلهة لدماء البشر. وهذا ما صير فرانس يشك دائماً فى نيات سواد الشعب شأنه فى ذلك شأن الفنانين كافة؛ واسمعه يقول عن جورج براندس: «إنه لم يستهو أحداً، حتى ولا عامة الشعب».

و«ثورة الملائكة[٣]» صورة رمزية لكل ثورة. فيها يتمرد إبليس على الرغبـة الإلهية. إنهـا ثورة الحرية على النظام أو هى ثورة الطبيعة على الضبط أو قل ثورة الفرد على المجتمع. فينتصر إبليس وينصب نفسه منصب الآلهة واعظاً، مرشداً إلى التقاليد

---

(١) مأساة الإنسان الفصل الحادى عشر.

(٢) نشرت عام ١٩١٢.

(٣) The Revolt-of the Angels نشرت عام ١٩١٤.

القديمة وجاعلا البابا وكيلا له على الأرض . وله يقول : « لك أدع أمر البت فى القضايا التقليدية وفيك أضع سلطة تنظيم السر المقدس ، وإصدار القوانين وحق تأييد سلامة الأخلاق .. إنك معصوم عن الزلل . وكل شيء سيظل كما كان[1] » . فى هذه الكلمات القليلة أودع فرانس خلاصة مبدأ الشك . كل شيء سيظل كما كان حتى وإن فازت الثورة أو إن حل إبليس محل الإله . والبادرة الوحيدة التى تبدو فيها بارقة أمل هى فقرات الخطاب الذى يلقيه إبليس على أتباعه المغلوبين على أمرهم .

« أى أصدقائى . إذا ما أنكر علينا النصر فى هذه الساعة فلأننا لا نستحق النصر أو لا قبل لنا به ؛ وعلينا أن نقرر مواضع خيبتنا . إن الطبيعة ليست مما تسهل الهيمنة عليه ، لا يمكن القبض على صولجان الكون إلا بالمعرفة وحدها . وليست الشجاعة التى أكسبتكم مخادع السماء بالشجاعة العمياء ، بل هى الدرس والتأمل . وفى هذه الميادين الصامتة التى أسقطنا فيها لنقف مفكرين مليا عسى أن نرى الأسباب الخفية للأمور ، ولنلاحظ مسالك الطبيعة ثم لنقتف أثرها بعزم لا ينثنى وبرغبة ملحة ولنكافح فى سبيل احتراق أسرار عظمتها الدقيقة اللامتناهية . فإذا ما ذللناها وسخرناها لغاياتنا استطعنا أن نكون بمصاف الآلهة » .

---

(٤) ثورة الملائكة ص ٣٤٥ .

الفنّان

كان فرانس فيلسوفا ، وكان ما يتمتع به من إحساس فكرى مرهف ومن رغبات جامعة ، ومن سعة فى الاطلاع ، دوافع تحببه إلى نفوس أولئك الذين يجدون متعة فى التأمل واطمئناناً فى التفكير . ولكن فرانس كان أكثر من فيلسوف وأسمى من باحث فى تضاعيف الكتب ، وأقوى من مجاهد فى سبيل تحرير البشرية . لقد كان فنانا . فهو بفنه بز أدباء عصره على كثرتهم . وبفنه سيظل خالدا فى مخيلة المعجبين به أجيالا عديدة .

ومع ذلك فإن فن فرانس ينقصه الكمال ، ذلكم لأنه لم يعن العناية كلها فى الرصف والنحت . فإذا ما كانت قصصه ذات فن يثير الإعجاب ، فإن رواياته تفتقر إلى وحدة الفكرة ، كأنما سطرت من أجل التعريض بحادث معين من حوادث الماضى . وتمتاز تايس وحدها من بين جميع ما كتب بما فيها من وحدة فى الرغبات وتناظر فى البناء وملازمة فى التكوين أدت إلى سلامة فى الأسلوب . ومما يؤخذ عليه أن جل رواياته يعوزه الإبداع فى المادة والابتكار فى الفكرة ، وليس من الشطط أن يقال إن الموضوعات التى تدور

حولها رواياته مقتبسة من مصادر أخرى . غير أن اليد التى اقتبست تلك الموضوعات لم تكن أدنى براعة من يد شكسبير فى اقتباسه موضوعات رواياته . وحجة فرانس فى ذلك أنه كان شديد الإعجاب بما كان يقتبس وبما أورد من فكر . فليس فى العالم من جديد ، إن ما فيه قديم قدم الفكر ، لكنه مبعثر فى طيات الكتب . على أن إبداع فرانس الفنى يتجلى فى عرض تلك الفكر وليس فى مادتها . فتاييس مثلا تعيد إلى الذاكرة أدب فلوبرت ، وحديقة أبيقور تفيض بعبير شك ليس بغريب عن شك رينان . وإبداع فرانس إبداع ذاتى . فهو لم يستطع فيما كتبه تناسى ذاته ، وكأنما عجزت قوة خياله عن تصور شخصيات تتباين وشخصيته ، شأن شكسبير أو بلزاك . ومهما اختلفت أسماء شخصيات رواياته — سرفيين أوبونار ، برجريه أوكونار ، فنس أو ديشارتر ، تروبلت أو برتو — فإن كلاً منها يمثل ناحية من نواحى شخصية مبدعها ، مثلما يمثل أبطال بايرون الشاعر ذاته .

وفرانس لا ينكر افتقاره إلى ما يسمى بالتخيل الإبداعى ، بل يعترف بذلك اعترافا يثير الإعجاب [1] . ولكنه يكفر عن ذلك بعرضه الفكر القديمة ثانية عرضا مبتكرا ، كأنما أوتى جهازا

---

(١) جزيرة النجوين ص ٣٩ . والحياة الأدبية ، المجلد الثانى ص ٣٩ .

سحريا يمكنه من الانتقال إلى العصور السحيقة، فيبعث فى حوادث الماضى، بما وهب من صبر وما أوتى من قوة فى البحث ودقة فى الفهم، روحا حديثة وحياة جديدة. وإذا ما أمعن النظر خلال عدسات فنه شوهدت وقائع الماضى تقترب حتى تصبح فى حدود مدى الرؤية. ولا بدع فإن فرانس وفق لرؤية تلك الدقائق بوضوح أكثر من رؤية بعضها لحوادث عصرنا. وقد اخترق ما يكتنفها من غموض بوصفه الدقائق لها وصفا تتضاءل أمامه واقعية الواقعيين. ولم يكن يزعجه النفوذ إلى ما تداعى من عقائد دينية وما تقادم من فلسفات للإحاطة بما خفى من دقائقها إحاطة لم يسبقه إليها أحد من قبل. فقد يقسو أحيانا عند عرضه صورة واقعية للتاريخ، كما فعل فى «وكيل يهودا[1]» ومع ذلك فإنه يشعر بجمال الثقافة القديمة شعورا يمكنه من عرض تلك الثقافة على صفحات كتبه عرضا يكسبها نقاء فى المعتقد وصفاء فى الفكر. فإذا ما جرد قصة جان دارك مثلا من جميع ما فيها من حوادث غير طبيعية، فإنه أكسبها بهاء الفتاة الطاهرة البسيطة المحبوبة، التى أثارت أخيلتها شجاعة شعب منهزم فدفعته إلى الفوز والنصر. وأظهر ما فى كتب فرانس أنه أكثر من ذكر الحب والهوى،

---

(١) The Procurator of Judea.

فتكاد لا تخلو صفحة من صفحات كتبه من ذكر الغرام والشوق. كذلك يبدو حبه للبشرية والحنين للأدب الرفيع من بين سطور كتبه. وكان كثير الاستهجان للأسلوب الرومنطيقى فى الأدب، ذلك الأسلوب الذى يطفو على أجنحة الفناء، والذى لا يتطلب جهدا فى التأليف أو عناء فى التفكير أفلم يقض جل وقته من أجل إخراج أدب مهذب رفيع كامل، وهو مؤمن بأن الأسلوب ينطوى على سر الخلود الفنى. «فما الأسلوب إلا آنية ذهبية تحنو على الفكر فتقيه من الفناء، وبذلك ينتقل جوهره انتقالا سريعاً من جيل إلى جيل.. وهل من خلود بغير الأسلوب.. فإذا ما عرضت الفكرة الجديدة بأسلوب مبتكر كان ذلك فناً كله، وحسب الأديب فنه ما دام من إبداعه[1]».

وهكذا كان أسلوب فرانس أسمى من أسلوب أى أديب فرنسى آخر معاصر له، فكأن أسلوبه عطر نادر يؤثر فى أحاسيس الناس تأثير المادة المخدرة من فرط سلاسته وسموه. ويتميز ببساطته وبلطفه وبنزعته الواقعية. إنه أكثر طراوة من الندى وأصفى من أيام حزيران، وكأنما اختص وحده بالبهاء واللطف والمطاوعة والجمال الناجم عن الدلال والنعمة. والقطعة التالية

(١) نقلا عن ميشو فى كتابه «أناتول فرانس» ص ٢٢٧، ٢٢٩.

التى يصف بها أثر الأدب الإغريقى فى نفسه تعبير دقيق عما قلناه عن أسلوبه :

Il voyaitdes figures divines, des bras d'ivoire tombant sur des timiques blanches ; il entendait des voix plus belles que la plus belle musique, qui se lamentaient harmonieusement.

« تراءت له أشباح آلهة ذات أيد عاجيـة متساقطة على أردية نقية اللون بيضاء وكأنه سمع أصواتاً أكثر عذوبة من أرق موسيقى منبعثة من ندب منسجم [(١)] » .

لقد كان لفرانس أذن تتأثر بالموسيقى تأثراً خاصاً متلازماً وسلامة أسلوبه . فكأن الكلمات التى سطرتها أنامله تداعب معانيها ، والفقرات التى دونتها أقلامه متساقطة بعضها على بعض تساقطا منسجما انسجاما عجيبا .

ويفيض أسلوبه وضوحا وبساطة ، فالكتاب الفرنسيون ، كما يصفهم فرانس يتمتعون بثلاث صفات عظيمة هى : وضوح التعبير وسلاسته وبساطته [(٢)] ولا ريب أن هذه الصفات اجتمعت كلها فى أسلوب أناتول فرانس . « فثمة وسائل للاجتذاب فى مقدور

(١) كتاب صديقى ص ١٧٠ .

(٢) نقلا عن براندس فى كتابه « أناتول فرانس » ص ١٠٧ .

أكثر الناس تواضعا الأخذ بها، هى البساطة الخالية من الصنعة[١]».

فقد كان فى استطاعته أن يجعل أسلوبه تصويريا كلما رغب فى ذلك، فإنه عندما أراد مثلا وصف أصابع طفل قال عنها «كأنها أشعة كوكب وردية» ولكنه كان يعرض عن هذا النوع من الأسلوب «لنكن حذرين من العناية الفائقة بالكتابة. إذ تكون الكتابة عند ذاك أسوأ المسالك[٢]».

غير أن بساطة فرانس استوعبت التعقيد كله، وصفاؤه انبثق من بين الغموض جميعه. فوراء رقته يختفى نقد لا يدانيه نقد آخر بشدة لذعه، وفى قصر عباراته يتجلى أكثر الأفكار حصافة ودهاء. فاسمع ما يقوله عن رينان: «إذا آمنا بما يقوله راعى الأرواح هذا فسيتعذر علينا تجنب الرحمة الإلهية، ولهذا فسندخل الفردوس حتما، ما لم ينتف وجود الفردوس الأمر الكثير احتماله[٣]» وهل ثمن قول يعرض بتفكير رينان أجمل من هذا القول.

إن فرانس مثل هاين يرغب دائماً فى هدم ما يبتنيه بعباراته المؤثرة فى النفس، بكلمة واحدة يوردها فى آخر تلك العبارات،

---

(١) الحياة الأدبية — مقدمة المجلد الثانى.
(٢) نقلا عن ميشو فى كتابه «أناتول فرانس» ص ٢٣٢.
(٣) المصدر السابق ص ٢٣٢.

شأنه فى ذلك شأن الطفل الذى يأتى على قصوره اللعبية دون أى اكتراث . ونستطيع أن نجزم بأنه لم يسبق فى تاريخ الأدب الفرنسى وجود مثل هذا الاتزان بين حدة الفكر وصفاء التعبير حتى أن المرء لينسى ما فى ذلك من فلسفة . ذلكم لأن الفلسفة قلما ترتدى فنا كاملا مثل هذا الفن . ففى هذا الترابط غير المرئى بين المادة والأسلوب ، وفى هذا التزاوج بين الحكمة والجمال يتجلى كل ما قدمه أناتول فرانس من فن للبشرية . وإن روحه بلغت من السمو مقاما مكنها من إدراك جميع ما فى العالم من خير وجمال وحقيقة . وإن ما كان يتمتع به من حذق وإبداع وفقه لإظهار جلال هذه العوامل الثلاثة مترابطة ترابطا طبيعيا . ولا بدع فقد كان فنانا عظيما .

الصفحة الأخيرة

كان أناتول فرانس فى السبعين من عمره عندما وقعت الواقعة وأعلنت حرب عام ١٩١٤ ، ومع كبر سنه فقد سارع فتطوع لخدمة بلاده . وما كان ذلك منه كرها للسلم ولكن حبه لفرنسا فاق حبه للسلم . فما استطاع الوقوف بعيدا ، وهو المعروف بهدوئه واتزانه ليرى حضارة العالم تتداعى وتتحطم . فكان فى عام ١٩١٥ يخطب الجند ويقول لهم « أتدرون عم تدافعون ؟ إنكم تدافعون عن تراثنا الخالد وتقاليدنا وعاداتنا وقوانيننا ومعتقداتنا ونتائج قرائح نحاتينا ومهندسينا ، وفنانينا . إنكم تدافعون عن روائع موسيقارينا وعن لغة بلادنا ، اللغة التى ظلت تفيض من بين شفاه شعرائنا وكتابنا ومؤرخينا وفلاسفتنا . إنكم تدافعون عن النبوغ الفرنسى الذى أضاء سناه العالم ، ومنح شعوب الأرض حرياتهم [1] ».

وما كان دفاع أناتول فرانس عن فرانسا فيفيانى ، وملير اند وبونكارى وإنما عن فرنسا مونتاين وفولتير وفكتور هوجو

---

(١) نقلا عن شانكس فى كتابه « أناتول فرانس » ص ٢٠٩ .

ورينان . وكان كبيرا عليه تصوره اختفاء أسماء هذه الأعلام أو أن يصيب فرنسا الجدب فلا تلد أضرابهم .

لكن معاهدة فرساى أيقظته من حلمه اللذيذ الذى كان يصور له أوربا متحدة يعمها الرخاء ويسودها السلام . فاعتراه شىء من اليأس عندما وجد أولئك الذين دسوا السم لأوربا فأثاروها وأفقدوها هدوءها يخولون حتى تقرير مصائر الشعوب فيجتمعون ليعدوها لكارثة أخرى .

وعلق آمالا جساما على الثورة الروسية فرحب بها عند اندلاعها مغتبطا شاكرا . فمهما ارتكب مثيروها من أخطاء ومهما امتزجت حوادثها بعناصر الشدة فإنها ستناهض بلاد غرب أوربا فتحفزها للتخلص مما علق بها من أدران وتبعث قوى الخير فيها مجددا . وكم عجب أصدقاؤه من اندفاعه هذا نحو الشيوعية ، لكن استغرابه من قادة بلاده عندما ألفاهم يسيرون فى ركاب أصحاب النزعة العسكرية الذين دفعوا بلاد العدو إلى الانحدار كان أشد وأعظم من عجب أولئك . وكأنه أراد بطريقته الخاصة هذه إفهام ساسة البلاد أن فؤاده كان مع الطبقات العاملة الفقيرة التى سفكت دماءها من أجل الوطن وليس معهم هم الذين قدروا الأضرار بعدد القتلى ثم طلبوا التعويض بالذهب والمال . وعند ما عاد من

بلاد السويد فى عام ١٩٢١ ، بعد أن منح جائزة نوبل للآداب وجد أن اتجاهه السياسى الجديد أزعج رجال الأكاديمية الفرنسية مما جعلهم يرفضون الاشتراك فى تكريمه والاحتفال به . وما اكترث ولا اهتم بل سخر منهم وجمع خلصاءه فى وليمة خاصة . إن انتصار الأحرار فى العام الذى وافاه الأجل فيه أضاء شعلة الأمل التى كانت تتقد فى فؤاده اليافع .

كانت داره فى « فيلا سعيد » رقم ٥ ، ملتقى أعضاء الوزارة أمثال كالو وبانلفى ، وقادة الفكر فى فرنسا ، كما كانت ملتقى أقطاب الطبقة العاملة أيضا . إنها كانت حقا معبدا للفن وللأخوة الصادقة ، فى هيكلها يتحدث المعلم إلى تلاميذه المختارين ، فإذا ما أتم رسالته وانصرفوا يبشرون بها أوى إلى كنوزه التى تضم طائفة من روائع ما أنتجته ريش الرسامين ، وما أبدعته أزاميل النحاتين والحفارين . « عند ذاك يتناول بين يديه برفق وخشوع تمثال كيوبيد الصغير ، فيرفعه إلى قرب عينيه ثم يدنيه من شفتيه فيضمه إليها برفق ولطف[1] » . وقد قصدته مرة فتاة روسية لاجئة تطلب إليه أن يمنحها عطفه وحنوه ، فأدهشتها الكنوز التى وقعت عيناها عليها ، وفاتها أن تلك الكنوز ليست بثروة مادية بل هى روائع فنية .

---

(١) نقلا عن غسل ص ٢٢ .

غير أن الأرواح المعذبة كانت تركن إليه غير وجلة أو خجلة . وقد قال مرة أحد الزائرين « فى هذا البيت تستقر قنبلة ذات شطرين لا خطر منها ما دامتا متباعدين ، فإذا ما قرب أحدهما من الآخر وربطا معا سيأتيان على الدار وما فيها . » فرد عليه أناتول بهدوئه المعهود « أرجو ألا تربطهما معا ، واسمع منى يا صديقى ما دامت هناك دواعى غير مادية فيجب أن نلجأ إليها . وأملى أن تتذكر دائما أن العدل الذى يقضى بقتل الإنسان لا يمكن أن يكون أكثر من تبرير حقير حتى وإن صدر ممن يدافع عن الحرية . فليس من الخير أن تطفىء عطش الآلهة بالدماء[1] » .

ودنت ساعة الرحيل الأبدى ، وأصاب المعلم ما يصيب جميع الكائنات . ليس بغريب أن نزول من الوجود نحن عامة الناس ، فتردنا الطبيعة إلى بودقة الوجود لتبدع مادة أكثر خيرا من مادتنا ، نحن ندرك ذلك ، ونحن نعذرها عليه . أما أن تقضى على النبوغ وأما أن توقف ضربات الأفئدة المبدعة وتشل الأيدى المبتكرة فما لا تعذر الطبيعة عليه .

وعند ما أغمضت عيناه فى الثانى من تشرين الأول من عام ١٩٢٤ ، أثرت الفاجعة تأثيرا سحريا فوحدت جميع عناصر البلاد

---

(١) نقلا عن غسل ص ٢٢٩ .

ومشت صفوفا وعلى رأسها رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة دون أن ينقطع سيلها من الصباح الباكر إلى عشية النهار ، مارة بالقرب من جثمان الرجل الذى يبلغ أعلى مراتب السمو فى الأدب الفرنسى لتودعه الوداع الأخير . وعندما نقل إلى حيث يوارى التراب ، كانت الطرق الخمس المؤدية إلى ترابة نبويلى مكتظة بالآلاف من الجماهير الذين كانوا ينتظرون الجثمان ليلقوا عليه النظرة الأخيرة . ولا ريب فى أن فرنسا لم يسبق أن احتفت بتشييع عظيم منذ أن عاجل الأجل فكتور هوجو احتفاءها بتشييع جثمان أناتول فرانس .

حدث قبل أن قضى فرانس نحبه بأيام قلائل أن استفتت إحدى المجلات الأمريكية ما فى الولايات المتحدة من فنانين وكتاب ونقاد معروفين عن أعاظم نوابغ العالم ، وعند ما صنفت أجوبتهم كان أولهم شكسبير وثانيهم جوتيه وثالثهم أناتول فرانس .

مؤلفات المعرب

١ — الغدد الصم وتأثيراتها فى شخصياتنا — مطبعة الفيحاء البصرة سنة ١٩٤٠ .

٢ — التعليم والتربية فى بريطانيا — للأستاذ هيلس — مطبعة المعارف بغداد سنة ١٩٤٤ .

٣ — التعليم الريفى وما يرجى منه — مطبعة الحكومة . بغداد سنة ١٩٤٤ .

٤ — التعليم الريفى والزراعى فى تركيا الحديثة — مطبعة التفيض . بغداد سنة ١٩٤٤ .

٥ — مرشد المعلمين فى المدارس الابتدائية — مطبعة الحكومة . بغداد سنة ١٩٤٥ .

٦ — مباحث فى علم النفس الحديث — الطبعة الثالثة — مطبعة دار الكتاب العربى القاهرة سنة ١٩٤٧ .

DATE DUE

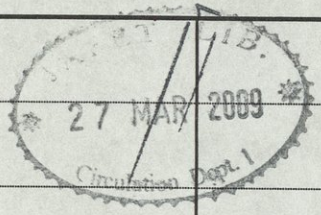

848:F815YdA:c.1
ديورانت ،وليم جيمس
اناتول فرانس: حياته من كتبه
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031402

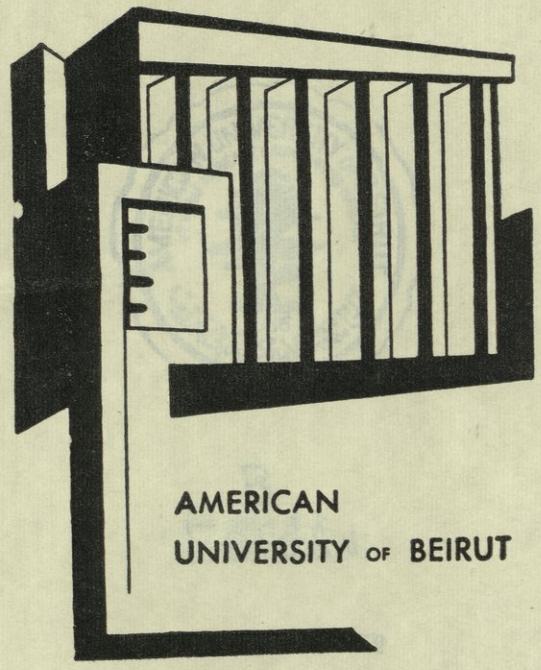

848
F815Yd A
C.1